

## الإعجاز اللغوى فى القرآن

القرآن كلام الله سبحانه وتعالى، وما دام كلام الله فيجب أن يكون معجزاً؛ لأن قائله وهو الله سبحانه وتعالى ليس كمثل شئ، ولقد أذهلت بلاغة القرآن عند نزوله العرب وهم أساطين البلاغة فى ذلك الوقت وُهبوا لما فيه من إعجاز وبلاغة، وقال بعض العرب فى ذلك الوقت: إن أساتذة البلاغة قادرون على أن يأتوا بمثل هذا الأسلوب، ولكنهم صُرفوا من الله على أن يأتوا به. وهذا القول هو إثبات بأن القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى، فلو أنه ليس كلام الله لما صرف الله العرب عنه أن يأتوا بمثله، وأثبتوا أن إعجاز القرآن الكريم موجود، ولكنهم جعلوا هذا الإعجاز بالقدرة أى إن قدرة الله سبحانه وتعالى قد صرفتهم عن أن يأتوا بمثله، وكان هدفهم أن ينفوا الإعجاز عن ذاتية القرآن فى أن بشراً لا يستطيع أن يأتى بمثله. وبهذا النفى الذى أرادوه أعطوا القرآن معجزة أخرى وهى معجزة القدرة.

على أن إعجاز القرآن يجب أن ننظر إليه من الدائرة الأولى التى استقبلته، وهى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالمنطقى والطبيعى مادام القرآن كلام الله سبحانه وتعالى يكون أبلغ الكلام، ويكون فيه معجزة، وبلاغة القرآن لها عناصر لا بد أن تتوافر فيها، فالبلاغة هى: مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومقتضى حال المخاطب بالذات، ولكن العجيب أن القرآن فى هذه الناحية - وهى مطابقة الكلام لمقتضى الحال - فيه معجزة كبرى، فأحوال الناس متعددة، متغيرة، وأنت حين تخاطب إنساناً إذا لم تعرف ما فى نفسه، فإنك لا تستطيع أن تصل إلى أعماقه، فمخاطبتك لرئيس الدولة مثلاً أو الأمير تختلف فى أسلوبها وطريقتها عن مخاطبتك لخدمك أو من يعمل عندك، تختلف فى أسلوبها عن مخاطبتك لزوجتك وأولادك، وكل ذلك يختلف عن مخاطبتك لرئيسك فى العمل، أو لمرؤوسك إلى آخر النوعيات التى تخاطبها، بل إن الأمر يمتد أكثر من ذلك إلى الحالة النفسية التى يكون فيها المخاطب، فإنسان غاضب فى قمة غضبه لا يمكن أن تخاطبه بالأسلوب نفسه والطريقة نفسها التى تخاطب هذا الشخص ذاته بها عندما يكون فى حالة نفسية سعيدة. هذا له كلام، وهذا له كلام آخر، مخاطبة الإنسان الغاضب لها طريقة، ومخاطبة الإنسان الذى هو فى حالة نفسية سعيدة لها طريقة أخرى، ولكن إعجاز القرآن يأتى فى أنه يحيط بالحالات النفسية للمخاطبين جميعاً، الغنى منهم والفقير،

والتعيس منهم والسعيد، الخادم منهم والسيد إنه يخاطبهم جميعا، ويخاطبهم في حالاتهم النفسية كلها، فالإنسان الغاضب إذا سمع القرآن هدأت نفسه، والإنسان السعيد إذا سمع القرآن اهتز في داخل نفسه وزادت سعادته، والأمير، والخادم، والمتقف، وغير المتعلم، وهؤلاء جميعاً الذين لا يمكن أن يجتمعوا على أى مستوى، ولا أن تتوحد عقلياتهم، بحيث يكلمهم متحدث واحد، وفي الموضوع نفسه فيفهمونه، تراهم فى الصلاة، وقد اجتمعوا فى المسجد وجلسوا معاً، ويتلى القرآن فيهب قلوبهم جميعا، رغم اختلاف الثقافة والبيئة والحالة النفسية والحالة الاجتماعية وكل شيء اختلافاً بينا، ومن هنا كان الإعجاز الأول فى بلاغة القرآن أنه يحيط بعلم حالات أفراد متعددين . من أجناس مختلفة، شعوب مختلفة، وثقافات مختلفة، ولغات مختلفة، وبيئات مختلفة ثم يخاطبهم بما يهب وجدانهم ومشاعرهم، ويؤثر فى عواطفهم، فإذا سألت أحدهم ما الذى أعجبك فى القرآن، فإنه غالباً لا يستطيع هو أن يصفه الوصف الكامل، أى إن القرآن يخاطب فى النفس البشرية أحاسيس وملكات لا يعلمها إلا خالقه، وهذه الملكات لو عرفناها لعرفنا لماذا تتأثر بأسلوب القرآن، ولكننا نظل نبحث ونحوم حول الآيات التى أعطت القرآن هذه البلاغة، ثم بعد ذلك لا نجد جواباً شافياً إذ إن الله سبحانه وتعالى يخاطب فى النفس البشرية ملكات هو خالقها، وأن هذه الملكات تتأثر بكلام الله سبحانه وتعالى وتهتز له بدون فارق من فوارق الدنيا، أو من الفوارق التى وضعتها الحياة الدنيا بين الناس ولذلك كان أخشى ما يخشاه الكفار أن يستمع الناس إلى القرآن، ولو كانوا غير مؤمنين فقد كان القرآن بمخاطبته لملكات كل نفس يهزها هزاً عنيفاً ويجعلها تتأثر به، حتى إن الوليد بن المغيرة حين استمع إلى القرآن قال: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه .

وهكذا تأثر به من دون إيمان، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين دخل بيت صهره بعد أن علم بإسلام أخته وزوجها كان ناوياً الشر، وما أن استمع إلى آيات من القرآن حتى هدأت نفسه وانشرح صدره للإسلام، لماذا؟ لأن كلام الله سبحانه وتعالى قد خاطب ملكة فى نفسه، وهو فى غاية الضيق والحرق وينوى الشر، وخاطب هذه النفس . نفس عمر بن الخطاب، وهى فى هذه الحالة من الغضب الشديد بالكلام نفسه الذى يخاطب به المؤمنين . وهم فى حالة انسجام وسعادة شديدة لقربهم إلى الله سبحانه وتعالى، وإذا بالآيات، الآيات نفسها التى تدخل السعادة على نفس قريية من الله قد أدخلت الهدوء والانسجام على نفس لم تكن قد آمنت، وأصابته فى الوقت نفسه نفوساً سعيدة وهى نفوس المؤمنين فجعلتها تزداد سعادة، وتنشرح للإسلام ونفساً غاضبة تنوى الشر لم تصل إلى الإيمان بعد فهدأتها وجعلتها سعيدة، وانشرح الصدر للإيمان، مع أن الكلام واحد،

وفرق كبير بين حالة المخاطب في الحالتين، ومع ذلك - ولأن القائل هو الله سبحانه وتعالى، وهو العالم بالنفس البشرية التي خلقها - فقد كان كلامه مناسباً لكل حالات المخاطب مهما اختلفت هذه الحالات، مع أنه الكلام نفسه.

إذن . . . فهناك في النفس ملكات خفية عن الإنسان، لا يعرف سرها إلا الله سبحانه وتعالى، ويقوم الله بمخاطبة البشر على اختلاف أحوالهم، فتتهز هذه الملكات، وتتأثر وينسجم الإنسان معها بدون أن يعرف السر.



## من بلاغة القرآن

تحدثنا عن أول شروط البلاغة وهو: مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ونجد أن القرآن في هذه الناحية قد تخطى كل شروط البلاغة في أنه مطابق لكل أحوال البشر، على اختلاف ظروفهم، ولذلك تحير الكفار في هذا الإعجاز في مخاطبة البشر جميعاً، وفي هذا الإعجاز الذي تهتز له قلوب كل من يسمعون ويفهمونه فقالوا: ساحر سحر الناس بكلامه؛ لأنه لا يمكن لبشر عادي أيًا كان أن يأتي بكلام يطابق كل الأحوال ولو أخذنا أبلغ بلغاء العصر، وقلنا له أنظم قصيدة، أو عد كلاماً لتلقيه أمام الناس، فهو لا يستطيع أن يعد كلاماً يقوله أمام مجموعة من المتبحرين في العلم، وفي الوقت نفسه يقوله أمام مجموعة من غير المتعلمين، ويكون الكلام مطابقاً لمقتضى الحال ولا أن يعد قصيدة يمدح بها أميراً. ثم يقول القصيدة نفسها في خادم الأمير، ويكون الكلام مطابقاً لمقتضى الحال، ولكنهم وجدوا أن القرآن يخاطب المتعلم وغير المتعلم والعبد والسيد، والرجل العادي والحاكم، ومن هنا كانت المطابقة معجزة، فقالوا ساحر، فليأتوا بسحر مثله، ثم هل للمسحور خيار أو إرادة مع الساحر؟ إذا كان محمد عليه السلام قد سحر من آمن به فلماذا لم يسحركم أنتم؟ إن بقاءكم على الكفر ومحاربة الدين، دليل على أنه ليس ساحراً وإلا لو كان ساحراً لكان قد سحركم جميعاً، ولم يسلب بعض الناس إرادتهم، ويترك البعض الآخر على إرادته.

ثم انتقلوا إلى نقطة أخرى، قالوا: مفتر، نقول لهم: ما دمتم قد فهمتم أنه مفتر فافتروا أنتم إن كنتم تستطيعون، بل إنكم أنتم أيها الكفار أقدر منه على الافتراء فالرسول صلى الله عليه وسلم ليس له دراية بفن الكلام والمخطب والشعر والأدب، بل إنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يقول الشعر، أما أنتم فأساتذة الكلام والبلاغة، فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يعرف القراءة والكتابة، ولم يقل شعراً أو أدباً قد قال هذا الكلام وأنتم تقولون: إنه مفتر، فوسائل الافتراء تملكون أسبابها أكثر من محمد صلى الله عليه وسلم، عندكم الشعراء والأدباء، فافتروا مثله، وأداة الافتراء موجودة تستطيعون أن تستغلوها.

ولقد أراد القرآن أن يرد على هذا الإعجاز، فقال سبحانه وتعالى: ﴿رَبِّاهُمْ يَقُولُ سَاحِرٌ قَبِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَلَا يَقُولُ كَافِرٌ قَبِيلاً مَا تُذَكِّرُونَ ﴿﴾ [الحاقة].

حتى الرد إعجاز، فالشعر مفهوم أنه كلام موزون مقفى يعرفه الناس جميعاً، ومن هنا فكونكم تقولون: إن هذا شعر، فهذا دليل على أنكم تكفرون، لماذا؟ لأنكم تعرفون

الشعر معرفة جيدة، وهذا ليس شعرا بأوزانه وقوافيه ؛ ولذلك عندما تقولون أيها الكفار : إنه قول شاعر، فما تقولونه ليس عن جهل ولكن عن كفر بالله سبحانه وتعالى ؛ لأنكم تعرفون الشعر جيدا، ثم قال الله سبحانه وتعالى ، وعندما تقولون : إنه قول كاهن وقول الكاهن كلام فيه سجع، ويمكن أن يختلط ، ولكن قول الكاهن لا يمكن أن يخاطب كل الملكات ولا يمكن أن يكون فيه كل هذا الإعجاز، كما أن الكاهن يفضحه طول الوقت والزمن ومن هنا فإنه كبشر ينسى ويأتي بعكس ما قاله نتيجة لمرور الوقت والزمن، ولذلك عندما رآه الله سبحانه وتعالى على قولهم إنه كاهن، كان الرد بكلمة: ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ ؛ لأنه من الواضح أن هذا ليس شعرا، ومن هنا فإنه يمكن أن يختلط بكلام الكهان، والفرق بين الشر والشعر في هذه الحالة هو الإعجاز في مخاطبة ملكات النفس البشرية، وثانياً طول الزمن الذي يجعل الكاهن ينسى ما قال، ومن هنا قال الله تعالى: ﴿ قِيلَ لِمَ تَذَكَّرُونَ ﴾ لأن البشر معرضون أن ينسوا ما يقولون، فاستخدم كلمة: ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، ولم يستخدم كلمة يكفرون، أو الكفر، استخدمها في الحالة الأولى عندما قالوا قول شاعر ؛ لأن الشعر له قواعد معروفة .

نأتي بعد ذلك إلى إعجاز آخر في القرآن، إنك إذا قرأت أي كلام مثنو، ثم جاء الكاتب فاستشهد ببيت من الشعر، تشعر ساعة أن ينتقل الكاتب أو المتكلم من النثر إلى الشعر أنك انتقلت من طبيعة كلام إلى كلام آخر، ثم نترك بيت الشعر وتعود إلى النثر فتعرف أيضا أنك انتقلت من كلام إلى آخر نأتي إلى رسالة ابن زيدون التي تعتبر القصة في ذلك الوقت: ومع اليوم غد، ولكل أجل كتاب، له الحمد له على اهتباله، ولا عتب عليه في إغفاله .

فإن يكن الفعل الذي ساء واحدا فأفعاله اللأني سورن السوف

وهنا نلتفت فنجد أننا انتقلنا من النثر إلى الشعر في كلام في غاية الانسجام، ولكننا نعرف الفرق .

نأتي إلى القرآن الكريم، كلام الله، نقرأ فيه: ﴿ رَبِّكَ الشَّقِيْقَ فِي جَنَّتٍ وَعُيُوْبٍ ۝۱۰۰۰ اَسْمَلُوْعًا يَسْتَلُوْا مِيْنَهُ ۝۱۰۰۱ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُوْرِهِمْ مِّنْ غَلِيٍّ اِخْوَانًا عَلٰى شُرُوْبٍ مُّتَنَلِّبِيْنَ ۝۱۰۰۲ لَا يَسْتَهْمُ فِيْهَا نَفْسٌ وَّمَا لَهُمْ فِيْهَا بِشُرُوْبٍ ۝۱۰۰۳ نَبِيْءٌ يَّصَادِقُ اِنَّ اَنَا الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ ۝۱۰۰۴ وَاِنَّ عَذَابِيْ هُوَ الْعَذَابُ الْاَلِيْمُ ۝۱۰۰۵ وَيَسْتَهْمُ عَنْ صَلٰىبٍ اِزْرِهِمْ ۝۱۰۰۶ مَعَلُوْا اِلَيْهِ فَمَا لُوْا سَلْمًا قَالَ اِنَّا بِكُمْ وَجِلُوْنَ ۝۱۰۰۷ ﴾ [الحجر].

أنت قرأت هذا النص القرآني ولم تشعر أنك قد انتقلت من النثر إلى الشعر ثم إلى النثر مرة أخرى من دون أن تدري، أي: إنك انتقلت من شيء مثنو إلى شيء منظوم، ثم من شيء منظوم إلى شيء مثنو، وأتحدى أن يأتي بها إنسان، عندما تنظر إلى الكلام الذي قيل: ﴿ نَبِيْءٌ يَّصَادِقُ اِنَّ اَنَا الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ ۝۱۰۰۴ وَاِنَّ عَذَابِيْ هُوَ الْعَذَابُ الْاَلِيْمُ ۝۱۰۰۵ ﴾ نجد فاعلات مستفعل فاعلات، بيت من الشعر، ومع ذلك ما أحست أذني أنني انتقلت من النثر إلى الشعر، وأنتى انتقلت بعده من كلام منظوم إلى كلام مثنو .

﴿ وَقَالَتْ اُنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدًا كَمَا اُنزِلَتْ اَكْبَرُكُمْ وَقَطَعْنَ اَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَىٰ فِى مَا هَذَا بَشَرًا اِنْ هَذَا اِلَّا مَلَكٌ كَرِيْمٌ ۗ ﴿٢٠﴾ قَالَتْ فَذٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِىۤهٗ وَقَدْ رَدَدْنٰهُنَّ عَنْ نَفْسِهِنَّ فَاِشْتَعَصَمْنَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا دَامَرُوۡهُ . . ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف].

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَذٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِىۤهٗ ﴾ مستفعل فاعل، مستفعل فاعل هل شعرت أنك انتقلت من كلام مشور . . وكذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]، مفاعيل، مفاعيل، مفاعيل، ﴿ وَاللّٰهُ يَهْدِيۤ مَنْ يَّشَآءُ اِلَآ اِنَّ مِرۜطًا لَّسُنۜفِيۜرٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿ لَقَدْ اَنْزَلْنَا نٰوۜنِيۜرًا مُّبِيۜنًا وَاللّٰهُ يَهْدِيۤ مَنْ يَّشَآءُ اِلَآ مِرۜطًا سُنۜفِيۜرٍ ﴾ [النور: ٤٦]، فى كل من هذه الآيات لم تشعر أنك انتقلت من شعر إلى نثر؛ لأنه لا توجد هناك فجوة كلامية، والقرآن نظم فريد، لا تستطيع أن تقول إنه نثر ولا شعر ولا سجع، وإنما هو كلام فريد يتناسب مع قول القائل سبحانه وتعالى إذن . . فبلاغة القرآن فى مطابقته للحال، حال جميع المخاطبين، وبلاغته فى الانتقال من الشعر إلى النثر، ومن النثر إلى الشعر من دون أن تحس، وبلاغته فى تحريك النفس البشرية كل نفس بشرية، وبلاغته فى أن الله تحدى أساطين البلاغة، بل تحدى الإنس والجن فى أن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا، وأمام هذا العجز لم يستطيعوا المواجهة التى يريدون أن يقوموا بها ضد الدين الجديد، لم يستطيعوا أن يحولوا هذه المواجهة إلى ذات المعجزة وهى القرآن الكريم؛ لأن التحدى كان أقوى منهم جميعا، فإذا بهم يصبون ذلك إلى من جاءت على يديه المعجزة وهو محمد صلى الله عليه وسلم، قالوا: ﴿ اِنۡزِلۡ هٰذَا الْقُرۡاٰنَ عَلٰى رَسُوۡلِنَا مِنْ اَلۡقُرۡاٰنِ عَظِيۡمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١].

وهنا مربط الفرس، الحقد والغيرة لم يستطيعا أن يواجها القرآن، فقالوا: لماذا اختار الله محمدا لينزل عليه القرآن، كأنما آفة القرآن أنه نزل على محمد عليه السلام، وليست آفته أنه صراع بين حق ينادى به القرآن . . وباطل هم مقيمون عليه، والذى يقيم على الباطل يريد الباطل أن يستمر؛ لأن الباطل هو الذى يعطيه القوة والقدرة والسيادة وهو يريد لهذا الباطل أن يبقى لتبقى له السيادة، فيأتى الحق ويغلبه، ويحس أن ملكه سيزول فيقول: ﴿ اَللّٰهُمَّ اِنۡ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنۡدِكَ فَامۡطِرۡ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنۡ السَّمَآءِ ﴾ [الأنفال: ٣٢]

إذن . . فهو يريد العزة مع الباطل، أما إذا كان زوال الملك سيأتى مع الحق فهو لا يريد، ويطلب الله، أو يطلب من الله أن يمطر عليه حجارة من السماء .

إذن . . فهو يكره الحق لذاته لأنه سيلبه سلطانه وقوته، ويريد الباطل أن يستمر؛ ليبقى سيده ولو بغير الحق، ثم يقول الكفار بعد ذلك: ﴿ اِنۡ تَلۡجِ اِلۡهٰدٰى مَعَكَ تَخۡطِفُ مِنْۢ اَرْضِنَا ۗ ﴾ [القصص: ٥٧].

إذن . . فالمانع من الإيمان ليس أنه غير الحق، لكن المانع له أنه سيزيل عنكم السيادة التى أعطاها لكم الباطل، وسينجراً عليكم الناس وتختطفون من أرضكم، وكان

هذا هو العناد بعد أن فشلوا في تحدى معجزة القرآن اللغوية، والرد عليها.

الكفار والمشركون في تحديهم ووقوفهم موقف المعارضة، أثبتوا أنهم في داخل نفوسهم يعتقدون أن القرآن هو الحق ؛ لأنهم لم يستطيعوا أن يتحدوا إعجازه، الإعجاز أولاً: في النبي صلى الله عليه وسلم المختار للدعوة، والإعجاز ثانياً: في استخدام نفس الحروف والألفاظ التي يستخدمها البشر، ولتحدث عن هاتين النقطتين بشيء من التفصيل.

الإعجاز الأول أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقرأ ولم يكتب طول حياته، ولم يتعلم القراءة والكتابة، ولم يدرس الأدب ولا الشعر ولا النثر، ولا علم الكلام، إلى غير ذلك، ومع هذا فقد جاء بكلام غاية في الإعجاز، كلام لا يستطيع أولئك الذين درسوا البلاغة وبرعوا فيها أن يتأوا به، أو يأتوا بسورة من مثله، بل الإعجاز يتجلى أكثر في أن الله سبحانه وتعالى أثبت في القرآن أن هذا الكلام ليس كلام محمد صلى الله عليه وسلم، بل هو كلام لا يمكن أن يأتي به أمي، فالإنسان الأمي قد ينطق الكلمات وقد ينظم الشعر والنثر والسجع، ولكنه لا يستطيع أبداً أن يأتي بالحروف التي تتكون منها الكلمات، فإذا أنت ذهبت إلى إنسان لم يعرف في حياته القراءة والكتابة، وسألته: ما هذا؟ يقول لك: هذا كوب مثلاً، فإذا قلت: ما هي الحروف التي تتكون منها كلمة كوب؟ لم يعرف ؛ لأنه لم يتعلم القراءة والكتابة، وإذا بالله سبحانه وتعالى يأتي بالحروف التي لا يعرف مسمياتها رجل أمي، ويجعل النبي صلى الله عليه وسلم ينطق بها ويجعلها في القرآن فيقول: ﴿الرَّ، كَهَيْصَ﴾ إمعاناً في الإعجاز والتحدى، ومحمد صلى الله عليه وسلم نبي أمي لا يمكن أن يعرف أسماء هذه الحروف أبداً ولكنه جاء بأسماء هذه الحروف إثباتاً بأن هذا ليس كلام محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لو كان كلام محمد - وهو رجل لم يقرأ ولم يكتب في حياته - لكان من المستحيل أن يعرف أسماء الحروف التي لا يعرفها ولا يستطيع أن ينطق بها إلا من تعلم القراءة والكتابة.

نأتى بعد ذلك إلى النقطة الثانية وهي استخدام نفس الحروف والألفاظ التي يستخدمها البشر في أسلوب ومعان يعجز عنها البشر، وهذا إعجاز وتحد ؛ لأنك حتى تريد أن تدلل على مهارة الصانع في أي شيء، فأنت لا تأتي بمادة مختلفة، ثم تقارن بين صانع وآخر أنت إذا أردت مثلاً أن تعرف من هو أمهر الناس في صناعة النسيج لا تأتي بخامة من حرير، وخامة من قطن، وخامة من خيش، ثم تعطيها لثلاثة صناع وتقارن بين إنتاجهم ؛ لأنك في هذه الحالة لا تستطيع أبداً أن تقول إن هذه أحسن من هذه ؛ لأن نسيج الحرير لا بد أن يكون أحسن ؛ نظراً لأن الخامة التي صنع منها الثوب هي أفضل الخامات.

ولكن المهارة تكون في استخدام مادة واحدة، نعطي الكل قطناً أو حريراً أو صوفاً ولذلك تكون العناصر المكونة للشيء واحدة، أو متساوية، فلا يكون لها دخل في الجودة وتكون الجودة أو المهارة للمصانع نفسه، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يثبت أولاً أن القرآن لم

يتميز ببلاغة إلا لأن قائله هو الله سبحانه وتعالى، مادته ليست من جنس أعلى من مادة البشر بل هي من كلام البشر، الحروف هي، والكلمات التي تنطقون بها هي الكلمات نفسها المستخدمة، وجاء بكلمات الحروف كأسماء يستطيع أن ينطق بها الجاهل والمتعلم ومسميات يستطيع أن ينطق بها المتعلم وحده، ثم بعد ذلك قدم المعجزة وتحدي الحروف الحروف نفسها، والكلمات الكلمات نفسها، ولكن الذي أفهمهم هو الله سبحانه وتعالى فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله، وهذا دليل على أن الصانع هو المختلف، ومن هنا كان التحدي عظيماً؛ لأن الفارق هو بين قدرة الله سبحانه وتعالى، وبين قدرة البشر.

وعندنا في البلاغة عندما نقول: إن هذا الشيء بليغ، ونقول: إن العرب قد اشتهروا بالبلاغة والفصاحة، يعني أن البلاغة هي وضع الكلام مناسباً للمقام الذي يقال فيه ومستوفياً لأركان سلامته، وأركان الكلام هي ألا يكون بين الحروف تنافر، مثل أن تكون الكلمة هبع هبع، وإنما تكون الكلمات منسجمة، ولا تأتي مخالفة لقانون اللغة ولا تكون غريبة على الأذن، عندما تستوفي الكلمة هذه الشروط، توضع في جملة يشترط أن تكون منسجمة مع الكلمة الأخرى، خاضعة لقواعد اللغة، وليس فيها تعقيد، إذن. . . عندما جاءوا يعرفوا البلاغة قالوا: هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته. . . تراكيب منسجمة ومخاطبة البشر مطابقة لمقتضى عقولهم، ومن هنا كانت بلاغة البشر على قدر علمهم بمقتضى حال المخاطب، ومعنى ذلك أنه لا بد أن يكون هناك عالم، وعلمنا كبشر بأحوال المخاطبين محدود، ولكن علم الله سبحانه وتعالى بلا حدود، ومن هنا فإن بلاغة القرآن الكريم في أنه معجز في مخاطبته للبشر جميعاً معجز في بلاغته، ومطابقته لمقتضى مخاطبته للبشر جميعاً يخاطب ملكات في النفس لا ندري ولا نعرف سرها، مكون من الحروف نفسها والكلمات التي يستخدمها العامي والمتعلم، تحدى به الله البشر أن يأتوا بسورة مثله، ثم تحدى الإنس والجان، وهم الذين لهم اختيار، ووضع الله فيه أسماء الحروف كإعجاز لأن الموحى إليه - وهو النبي صلى الله عليه وسلم - أمي لم يقرأ، ولا يكتب، على أن الإعجاز في القرآن لا ينتهي عند هذا الحد وإنما يمتد إلى دقة اللفظ والتعبير التي يعجز عنها البشر.

إذا أردنا أن نتحدث عن معجزة القرآن وبلاغته، فإننا لا بد أن نتناول دقة اللفظ، أو دقة التعبير في القرآن الكريم، وكلام الله سبحانه وتعالى يجب أن يكون في غاية الدقة بحيث يعبر عن الشيء تعبيراً كاملاً، فلا تجد حرفاً زائداً بلا معنى، ولا كلمة مترادفة إلى آخر ما يقال عن القرآن الكريم، والحقيقة أن المعجزة في القرآن تجدها في حرف فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ يٰٓرَبُّوٓا۟يَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٦٩]. ﴿ قُلْ يٰٓرَبُّوٓا۟يَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]. ﴿ قُلْ يٰٓرَبُّوٓا۟يَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الروم: ٤٢].

وتقف أنت عند هذه الآية الكريمة وتساءل، لماذا لم يقل الله: قل سيروا على

الأرض هل أنا أسير في الأرض، أو على الأرض، حسب مفهوم الناس جميعاً، فإنا أسير على الأرض ولكننا نجد أن الله قد استخدم حرف ﴿ي﴾، ولم يستخدم حرف «على»، يقول: ﴿يَسِيرُ فِي الْأَرْضِ﴾، فـ ﴿ي﴾ تقتضى الظرفية، والمعنى يتسع؛ لأن الأرض ظرف المشى، ومن هنا فإن التعبير جائز، ولكن ليس في القرآن كلمة جائز، فالتعبير بقدر المعنى تماماً، والحرف الواحد يغير المعنى وله هدف، وقد تم تغييره لحكمة، لكن ماهى حكمة استخدام حرف ﴿ي﴾ بدلاً من حرف «على»؟

عندما تقدم العلم وتفتح وكشف الله أسرار الكون، عرفنا أن الأرض ليست بمدلولها المادى فقط، أى إنها ليست الماء والأرض، أو الكرة الأرضية وحدها، ولكن الأرض هى بغلافها الجوى، فالغلاف الجوى جزء من الأرض يدور معها ويلازمها، ومكمل للحياة عليها، وبدونه تصبح الحياة غير ممكنة على الأرض، وسكان الأرض يستخدمون الخواص التى وضعها الله فى الغلاف الجوى فى اكتشافاتهم العلمية، والدليل على ذلك أنك إذا ركبت الطائرة فإنها ترتفع بك ٣٠ ألف قدم مثلاً عن سطح الأرض، ومع ذلك فإنك لا تقول: إنك خرجت من الأرض، ولكنك تقول أنت تطير فى الأرض، متى تخرج من الأرض علمياً وحقيقة، هو عندما تخرج من الغلاف الجوى للكرة الأرضية ومادمت أنت فى الغلاف الجوى المحيط بالكرة الأرضية، فأنت فى الأرض ولست خارج الأرض فإذا خرجت من الغلاف الجوى فأنت فى هذه اللحظة التى تخرج فيها خارج الأرض، الغلاف الجوى متمم للأرض. . . وجزء منها، ويدور معها.

نعود إلى الآية الكريمة ونقول: لماذا استخدم الله سبحانه وتعالى لفظ ﴿ي﴾، ولم يستخدم لفظ على؟ لأنك فى الحقيقة تسير فى الأرض، وليس على الأرض، هذه حقيقة علمية لم يكن يدركها العالم وقت نزول القرآن، ولكن الله سبحانه وتعالى وهو القائل، وهو الخالق يعرف أسرار كونه، يعلم أن الإنسان يسير فى الأرض، إنه يسير على سطح الأرض ولكنه لا يسير على الأرض، بل يسير فيها بين الغلاف الجوى والسطح، ومن هنا فهو يسير فى الأرض، أى فى وسطها بين غلافها الجوى الذى هو جزء منها، وبين اليابسة التى هى جزء آخر، وهكذا نجد دقة التعبير فى القرآن فى حرف ونجد معجزة القرآن فى حرف.

نتشغل بعد ذلك إلى مثل آخر لنعرف مدى بلاغة القرآن فى اختيار اللفظ الذى يناسب المعنى تماماً، وليس فيه تجاوز ولا مترادفات، يقول الله تعالى على لسان لقمان وهو يوصى ابنه: ﴿وَأَسِرْ عَلَىٰ مَا أَمَّاكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنَ عَمَرَ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

ثم نجد آية ثانية: ﴿وَلَمَّا سَوَّرَ لِقَانَ ذَلِكَ لِقَانَ عَمَرَ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

زادت هنا اللام، أى إنسان يقول إن زيادة اللام هنا للتأكيد، كلمة مترادفة، لا يتوقف عندها كثيراً، ولكن المسلم حين يدقق فى معانى القرآن الكريم، يجد أن كل حرف

فى القرآن الكريم قد تم وضعه بحكمة بالغة، وأنه لا شىء اسمه مترادفات، وإنما لكل لفظ معنى يوديه، ولا يوديه اللفظ الآخر، رغم التشابه، فإذا دققنا فى المعنى نجد ما يلى:

فى الآية الأولى يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَأَسِيرَ عَلَيْنَا مَا أَصَابَكَ** ﴾ والأمر الذى يصيب الإنسان نوعان: نوع للإنسان فيه غريم، ونوع لا يوجد فيه غريم. عندما أمرض ليس لى غريم وإذا أصابنى مكروه بقضاء وقدر، كأن أكون سائرا فى الطريق فيسقط شىء فوقى ليس هناك غريم، إنما عندما أسير فى الشارع ويعتدى على إنسان بالضرب، إذن. . هناك غريم.

فهناك نوعان من الصبر، صبر النفس فيما ليس لى فيه غريم وهذا هين؛ لأنه ليس هناك إنسان أنفعل عليه، ولا أملك أن أرد على شىء قد حدث لى، فما حدث هو قضاء الله وأنا ليس أمامى إلا الصبر. . هذا نوع من الصبر لا يحتاج إلى طاقة كبيرة ليمارسه الإنسان لأنه ليس هناك غريم أستطيع أن أرد له ما أصابنى.

والنوع الثانى من الصبر، محتاج إلى جلد أكبر، ومحتاج إلى قوة إرادة. . وهذا النوع هو الذى يوجد لى فيه غريم أستطيع أن أنتقم منه، وأستطيع أن أصفح وأغفر.

إذن. . عندما يتحدث الله سبحانه وتعالى عن الصبر بنوعيه يعطى لكل نوع ما يستحقه من وصف للنفس البشرية، فهو عندما يتحدث عن الصبر على شىء ليس لى فيه غريم، يقول: ﴿ **وَأَسِيرَ عَلَيْنَا مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ﴾ [لقمان: ١٧].

وعندما يتحدث عن الصبر الذى لى فيه غريم بحيث أستطيع أن أنتقم، وأكون منفعلا إذا لم أنتقم، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ **يَذُوقْ ذَلِكَ لَمَنْ عَزِمَ الْأُمُورِ** ﴾.

هنا اللام للتأكيد فى نوع الصبر، وما يحتاج إليه من جلد وضبط للنفس، ففى الحالة الأولى حينما لا تستطيع أن تعاقب بمثل ما عوقبت به، يكون الصبر من عزم الأمور ولكن فى الحالة الثانية فإنك تستطيع أن تنتقم من غريمك، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَمَنْ صَبَرَ وَظَهَرَ** ﴾.

وهنا يظهر من كلمة غفر أن هناك غريما يمكن الانتقام منه، وأن هذا الغريم قد غفر الإنسان له، ومن هنا لا بد أن تأتى اللام للتأكيد، لتؤكد المعنى، وتؤكد الفرق بين عزم الأمور فى الحالة الأولى، وعزم الأمور فى الحالة الثانية، وهكذا نرى أن حرفا واحدا فى القرآن الكريم يصنع معجزة.

على أن المعجزة لا تأتى فى حرف فقط، بل تأتى أيضا فى مخاطبة القرآن للملكات البشرية المستورة، الشىء الذى ينبىء عن علم تام بخفايا النفس البشرية، وملكاتها التى نعرفها، والتى نجهلها، فمثلا عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يمنع المشركين من أن يطوفوا بالبيت الحرام، ساعة ما يلقى هذا الأمر فما الذى يهتز فى المسلم نفسه الذى يستمع؛ أى الملكات تهتز؟ ملكة الاقتصاد فى النفس على أساس أن هؤلاء المشركين

يأتون من كل الدول، المدن، القرى، والبلاد المحيطة بمكة، وهذه لم يصلها الإسلام بعد، ومعنى منعهم من الحضور، منع الخير الذي يأتي معهم، فهم يأتون بالبضائع وينفقون، ويحدثون رواجاً اقتصادياً، هنا تهتز ملكة الاقتصاد في النفس، واللّه سبحانه وتعالى وهو خالق للنفس البشرية، يعلم هذا، فعندما تنزل هذه الآية، لا تقتصر على مخاطبة ناحية افعّل ولا تفعل كما وُأمر ونُواه، وطريق ومنهج للحياة، ولكن تتجلى فيها رحمة اللّه، فتخاطب الآية الملكة النفسية التي تتأثر بالاقتصاد، فعندما يقول اللّه تعالى:

﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ [التوبة: ٢٨].

يخاطب في الآية نفسها الملكة الاقتصادية، ويخاطب الملكة الاقتصادية قبل أن يُثار السؤال في أن ذلك سيؤدى إلى ضيق الرزق، فيقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾.

الآية نفسها، والمعنى هنا أنه حذار أن تفتنكم الملكة الاقتصادية والخوف من ضيق الرزق عما أقول لكم في أفعّل ولا تفعل، ولا تخافوا من الفقر، فإن اللّه سبحانه وتعالى هو الغنى الحميد، وسيغنيكم من فضله.

إن هذا المعنى، معنى الملكة الاقتصادية، وتأثيرها داخل النفس يتكرر الآن في أشياء كثيرة تحدث في الدنيا، واللّه سبحانه وتعالى حين يقول لك: افعّل كذا، أو يقول لك لا تتعامل مع كذا، يأتي بعد ذلك مباشرة السؤال إلى ذهنك: والرزق الذى أحصل عليه من هذا التعامل، من أين أتى به؟ وهنا يقول اللّه سبحانه وتعالى: إننى أرزقك من طريقى ومادام بيدي أنا فأنتى سايسر سبيلاً آخر للرزق، ولا تحش الفقر، ولا تخف من أن رزقك سيناله غيرك.

واللّه سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم يخاطب دائماً ملكات النفس البشرية، ويرد عليها ببلاغة وبدقة متناهيتين، بحيث تجد أنه عندما تتغير كلمة واحدة من الكلمات فإن ذلك لأن اللّه سبحانه وتعالى يريد أن يعطى معنى جديداً، أو يفهم شيئاً جديداً، وهذه الدقة الهائلة، تجدها موجودة بكثرة فى القرآن الكريم، مثلاً إبراهيم عليه السلام يقول:

﴿ إِنِّي نَبِيٌّ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ الَّذِى خَلَقَنِي فَهُوَ رَبِّي ﴿١٣٢﴾ ﴾ [الشعراء].

هنا نتوقف لنسأل: لماذا لم يقل إبراهيم عليه السلام هو الذى خلقنى فهو يهدينى وقال: ﴿ الَّذِى خَلَقَنِي فَهُوَ رَبِّي ﴾، لأن الخلق ليس محتاجاً إلى تأكيد، فليس هناك إنسان مهما كبر - وعظم وحكم الدنيا كلها، يستطيع أن يدعى أنه يخلق إنساناً، وإلا فستطلب منه أن يفعل ذلك وسيعجز، إذن: فالخلق لم يدعه أحد، ولذلك فإنه غير محتاج إلى تأكيد، إنما الهداية هناك مئات الأنوف ممن يدعون أنهم يهدون الناس بعضهم وضع مناهج مع الدين وبعضهم وضع مناهج ضد الدين، والمهم أنهم جميعاً يدعون أنهم يريدون هداية البشر وكل إنسان يضع نظاماً يخضع لأمره وهواه، ويدعى أنه الهداية، ومن هنا كان

لا بد من التأكيد على أن الهدى من الله وحده، وأن الحق والطريق المستقيم من الله وحده، وهكذا نرى أن الضمير هنا كان لا بد من وضعه وأن الضمير في الجزء الأول من الآية لم يكن هناك حاجة للتذكير به، فالخلق صفة من صفات الله، لا ينازعه فيها أحد، وهنا تأتي كلمة: ﴿هُوَ﴾ ضرورة، ثم تأتي بعد ذلك في: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي﴾ [الشعراء]؛ لأن الإنسان يكسب ثمن الطعام والشراب، فهناك ادعاءات كثيرة في الرزق، ومن هنا فإن هذه الادعاءات محتاجة إلى أن يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي﴾

ويقول أيضا: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾ [الشعراء: ٨٠].

ذلك أننا بين الطبيب والدواء ننسى إرادة الله سبحانه وتعالى، ثم بعد ذلك نأتي إلى عدم وجود كلمة: «هو»، في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي يُبَسِّئُ لَنَا يَحْيِي﴾ [الشعراء: ٨١].

ولم يقل: والذي ﴿هُوَ﴾ يمينتي ثم ﴿هُوَ﴾ يحييني؛ لأنه لا أحد يستطيع أن ينازع الله في مسألة الموت والحياة، ولا يدعيها لنفسه، ومن هنا كان التأكيد غير لازم لمقتضى الحال.

وهكذا نرى في هذه الآيات أن الله سبحانه وتعالى يأتي بالضمير فيضعه مرة، ويحذفه مرة؛ لأن المقام يقتضى ذلك، ولأن دقة التعبير في القرآن الكريم تجعل الكلمة الواحدة توضع في المكان المناسب لتعبر عن المعنى الدقيق البالغ الدقة، سواء من ناحية الإضافة أو الحذف، أو اختيار الكلمات، ولو أن الله سبحانه وتعالى استخدم كلمة: ﴿هُوَ﴾ في كل الآيات التي ذكرناها، أو حذف كلمة: «هو» من كل الآيات التي ذكرناها لما تنبه لذلك معظم الناس ولمضى الحديث على أساس أنه كلام بشر، ولكنه كلام الله تعالى.

ونرى أن الدقة البالغة في التعبير تقتضى التغيير في كل حرف يتم، وفي كل كلمة تقال بل في الكلمة نفسها، مثلاً كلمة: سقيناهم، وأسقيناهم، سقيناهم متعدي وأسقيناهم متعدي ﴿وَسَقَيْنَهُمْ مِنْهُم شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

وفي آية أخرى يقول الله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُغْضَبْنَ عَلَى الطَّرِيقَةِ وَأُنْتَبِهْنَ﴾ [الجن: ١٦].

لماذا لم يقل لو استقاموا على الطريقة لسقيناهم؟ مع أن سقى وأسقى بمعنى واحد واللفظان يتعديان لمفعولين، ما هو الخلاف، هل هي مجرد مترادفات؛ أم ألفاظ تتغير حتى لا تتكرر الألفاظ نفسها؟ أبداً، كل تغيير له حكمة، كل تغيير يحدد معنى معيناً لا يُحذره غيره ونحن حين نأتي ونتابع القرآن الكريم نجد أن سقى تُستخدم في الأمر الذي ليس فيه كلفة ولا علاج، وأسقيناهم في الأمر الذي فيه كلفة وعلاج، هذا في أمور الدنيا: ﴿لَأُنْقِظَنَّهَا لَكُمْ مِنَ ذَنْبِكُمْ﴾

أمر فيه كلفة، فيه جهد، نحن أوجدنا لهم الماء وجعلناه متوافراً لديهم بلا تعب ولا

نصب فهو موجود في البشر، ولكن لكي تتم السقيا يجب أن يذهب الإنسان إلى البشر ليشرب، أو أن يحضر له إنسان آخر الماء، إذن هنا في أسقيناهم، رغم أن الماء موجود بقدرة الله سبحانه وتعالى ومتوافر بقدرة الله سبحانه وتعالى، إلا أن عملية السقيا فيها عمل من الإنسان، أو جزء من العمل، فإذا أتينا إلى كلمة: سقاهاهم، نجد الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَسَقَّاهُمْ زَيْتًا سَرَابًا مُّهِورًا﴾ .

هذا في الجنة، بمجرد الخاطر ليس فيه كلفة، إذا أحسست بالعطش وجدت الماء أمامك يصل إلى فمك، هنا في الآخرة لا يوجد أي جهد ولا كلفة، أي كلفة للإنسان في أي عمل يعمل، فكل شيء في الجنة متى تمناه الإنسان وجده حاضرًا أمامه، إذن فقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَقَّاهُمْ زَيْتًا سَرَابًا مُّهِورًا﴾ .

معناه أن السقيا هنا في الجنة ليس فيها أي جهد، ولا أي كلفة، ولذلك فرق الله سبحانه وتعالى بين السقين، رغم أنه هو الذي أوجد الماء أو ما يتم شربه في الحالتين. وإذا مضينا نقرأ في القرآن الكريم، نجد الله سبحانه وتعالى قد استخدم لفظًا معينًا، وفي حالة مماثلة لم يأت باللفظ نفسه حتى إنك حين تسمع الآية تظن أنه سيأتي باللفظ الأول ولكنه لا يأتي به، مثلاً يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أُولُو كَأَن نَّبَاؤُهُمْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

ويقول تعالى: ﴿أُولُو كَأَن نَّبَاؤُهُمْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]. لماذا الاختلاف في الكلمة، مع أن العلم والعقل واحد؟ أقول: إن هناك فرقا كبيرا يحتم في مرة استخدام لفظ ﴿يَمْلِكُونَ﴾، وفي مرة استخدام لفظ ﴿يَمْلِكُونَ﴾. نأني إلى نص الآيتين الكريمتين في سورة البقرة يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ مَا أُرْسِلَ اللَّهُ فَالُوا بِرِئَابِ اللَّهِ النَّاسُ أَتَى اللَّهُ الْبَشَرُ نَجْمٌ مَّا لَئِن لَّا يَدْعَاهُ أَتَوْا أُولُو كَأَن نَّبَاؤُهُمْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَدْعُو بِمَا لَا يُنْفَعُ إِلَّا دُعَاؤُهُ وَيَدْعُكُمْ بِكُمْ حَتَّىٰ قَهْتُمْ لَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة].

والآية الثانية في سورة المائدة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَسَاءَلُوا إِلَىٰ مَا أُرْسِلَ اللَّهُ وَبِالرُّسُولِ فَسَالُوا حَسْبًا مَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آيَاتِهِ أَتَوْا أُولُو كَأَن نَّبَاؤُهُمْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٧٠﴾ بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْتُمْ لَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٧١﴾ إِذَا أَفْتَدَيْتُمْ إِلَىٰ اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ حَيْثُمَا قُتِلْتُمْ فَسَمِعْتُمْ ﴿١٧٢﴾﴾ [المائدة].

ولكن عندما يأتي المستشرقون يقولون: إن اللفظين مترادفان، فالعلم والعقل، والعقل والعلم شيء واحد، والعقل من علم أو من استطاع أن يعقل العلم، ويقولون: إن هذه مترادفات، إلى آخر ما يقال في هذا الموضوع. نقول لهم: إنكم حينما تقولون هذا الكلام: فأنتم لا تعرفون شيئا عن بلاغة القرآن الكريم، فالله سبحانه وتعالى لا يستخدم

لفظين لأداء المعنى نفسه ولكن كل لفظ له معناه، كل لفظ يعبر بدقة عن المعنى المراد منه، فالله سبحانه وتعالى عندما يقول: ﴿يَتَفَلَّحُونَ﴾، معناها أنهم لا يفهمون شيئا، أى: ليس لهم عقول تفكر، لا يتدبرون فى أمر هذا الكون، إنهم لا يستخدمون عقولهم، ولو استخدموها وفكروا وتأملوا قليلا لوصلوا إلى أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق البارئ وأن هذا الكون بدقته وبديع صنعه لا يمكن إلا أن يكون من خلق الله سبحانه وتعالى هذه فى كلمة: ﴿يَتَفَلَّحُونَ﴾، إذن.. هو هنا نفى عنهم التدبر والتعقل فى أمور العبادة وفى أمور هذا الكون.

ولكن عندما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهو قد نفى عنهم التعقل والعلم معا بمعنى أنتى قد أكون باحثا فى هذا الكون، قد أكون متأملا فيه عاقلا لما يدور، فأفكر بعقلى، وأصل إلى أشياء، هذا هو الإنسان الذى يعقل.

أما قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهو يريد أن يقول لنا: إنهم بجانب عدم تدبرهم فى هذا الكون، وأنهم لا يعقلون الآيات الموجودة فيه، هم أيضاً لا يعقلون ما علمه غيرهم من العلم، فالذى لا يعقل لا يتدبر ولا يفكر فى آيات الكون، أما الذى لا يعلم فهو لا يفكر بعقله، ولا يعلم ما عقله غيره، إنه ليس لديه علم، ولا علم له من نتاج عقل غيره، فالعلم أوسع من التعقل ذلك أن العلم قد يكون علمً غيري دونه أو كتبه وسجله، وأكون أنا فى هذه الحالة قد أخذت هذا العلم وقرأته.. فكأنى علمت ما عقله غيرى، وهذا يحدث لنا كل يوم فنحن حين نقرأ كتابا جديدا نعقل ما علمه غيرنا، وحين نذهب إلى الجامعة ندرس ما علمه الأساتذة وكبار المفكرين، فأنا لم أعقل الجاذبية مثلا، ولم أعقل قوانين الفضاء؛ لأننى لم أشتغل بها لكى أصل إليها بعقلى، ولكنى علمتها عن طريق عالم فى الفضاء أو فى الجاذبية، وصل بعقله وفكره إليها ثم قرأت أنا ما علمه هو، فأنا هنا علمت ما عقله غيرى، فالله سبحانه وتعالى حين يقول: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ فى الآية الأولى، أى: إنهم لا يتدبرون فى الكون مستخدمين عقولهم؛ لأنهم يقولون: ﴿بَلْ نَسِخُ مَا آتَيْنَا عَلَيْهِ آيَاتِنَا﴾.

ومن هنا فإن الله رد عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا يَرَوْنَ كَذِبَ إِتْمَانٍ أَتَانَا أَلَمْ يَلْمُوا رَبَّهُمْ إِلَّا نَسُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

أى: لا يسمعون ولا يرون ولا يتحدثون بآيات الله سبحانه وتعالى، وهذا هو السبب فى أنهم لا يعقلونها، ولكن حين يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، تأتى ردا على كافرين قالوا: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آيَاتِنَا﴾.

هنا هم قد نطقوا، قالوا: لا نريد شيئا، ولا نريد علما، يكفينا ما وجدنا عليه آياتنا فرد الله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا يَرَوْنَ كَذِبَ إِتْمَانٍ أَتَانَا أَلَمْ يَلْمُوا رَبَّهُمْ إِلَّا نَسُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

أى: إنهم لا يعلمون علما بعقلهم، ويرفضون العلم الذى وصل إليه غيرهم، وهكذا نرى الفرق بين كلمة: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، وكلمة: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾.

ننتقل بعد ذلك إلى نقطة أخرى تشهد على بلاغة القرآن الكريم، ودقة التعبير فيه والقرآن الكريم مليء بإعجاز لا ينتهي أبداً، مثلاً بعض الآيات في القرآن الكريم يقول العقل السطحي: إن معناها واحد، ويتساءل لماذا غير الله سبحانه وتعالى الألفاظ؟ ولكن المتدبر في القرآن الكريم لا يمكن أن يقول: إنها توارد ألفاظ، فليس هناك شيء في القرآن الكريم اسمه توارد ألفاظ، ولكن هناك دقة بالغة في التعبير، واختيار اللفظ.

فالنظر إلى المعنى الذي قد لا يفتن إليه كثير من الناس، مثلاً فإن وأد البنات كان موجوداً في الجاهلية، ثم جاء الإسلام ليمنع هذا، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ تَحْتِ إِهْتِاقٍ تَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

الكلام هنا عن الفقر وقتل الأولاد، نأتي بعد ذلك إلى الآية الثانية: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَسَبَ إِهْتِاقٍ تَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الاسراء: ٣١].  
والآية الأولى: ﴿تَحْتِ إِهْتِاقٍ تَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.  
والآية الثانية: ﴿حَسَبَ إِهْتِاقٍ تَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

سنسأل: ما هو الخلاف؟ الآية الأولى تقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِهْتِاقٍ﴾، أي: إن الفقر موجود فعلاً، «الإملاق» وهو الفقر موجود فعلاً، ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿تَحْتِ إِهْتِاقٍ تَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾، مادام الفقر موجوداً، يكون الإنسان مشغولاً برزقه أولاً، يبحث عن طعامه هو أولاً ثم بعد ذلك يبحث عن طعام من سيأتي به من أولاد، هم الإنسان هنا هو يبحث عن طعامه وطعام زوجته، ومن هنا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿تَحْتِ إِهْتِاقٍ تَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ أي إنه يطمئنه أولاً على رزقه الذي هو شغله الشاغل، ثم بعد ذلك يطمئنه على رزق أولاده فيقول له: أنت فقير ومشغول برزقك.. وتخشى أن تأتيك الأولاد؛ لأنك لا تملك ما تطعمهم به، أنتي أرزقك وأرزقهم، أنت لك رزقك وهم لهم أرزاقهم لن يأخذوا من رزقك شيئاً، ولكن الآية الثانية تخاطب نوعاً آخر من الناس، الآية الثانية تقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِهْتِاقٍ تَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

هنا الإنسان ليس مشغولاً برزقه لا يخشى الفقر، عنده ما يكفيه، ولكنه يخاف إن رزق بطفل أن يصاب بالفقر، أن يأخذ هذا الطفل جزءاً من الرزق، ويصبح الرزق لا يكفيه ويكفى طفله، ومن هنا فإن هذا الإنسان يخاف إنجاب الأطفال، لماذا؟ لأنه يخشى أن يأخذوا من رزقه شيئاً، فيصبح فقيراً، فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿تَحْتِ إِهْتِاقٍ تَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

الآية الأولى: كان الشغل الشاغل للإنسان هو رزقه، فخاطبه الله سبحانه وتعالى أولاً بقوله: ﴿تَحْتِ إِهْتِاقٍ تَرْزُقُهُمْ﴾ ليطمئنه أولاً على رزقه.

الآية الثانية: رجل ميسر في الرزق لكنه يخشى الفقر من الأولاد، فالثمة طمأنه على

أن الأولاد لن يأخذوا من رزقه شيئا بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا لَكَرِيمٌ** ﴾ .  
إذن . . . فالتغيير هنا لازم وضروري يخاطب كل حالة على حدة .

ولكن لماذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّا هُمْ** ﴾ ؟ وقال: ﴿ **نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا لَكَرِيمٌ** ﴾ ولم يقل نحن نرزقكم جميعا؟ لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن تعرف أن لكل إنسان في هذه الدنيا رزقا مستقلا عن الآخر، وهذا الرزق الذي قسمه الله سبحانه وتعالى لا يستطيع إنسان آخر أن يأخذ منه شيئا، ومن هنا فالمولود لا يأخذ من رزق أبيه شيئا، والوالد لا يأخذ من رزق ابنه شيئا، ولأعلم أنني حينما أرزق بمولود فإن الله سبحانه وتعالى لا يقسم رزقي بيني وبينه، أو عندما أقتل المولود لن أستاثر برزق أكبر، أبدا .

نأتي بعد ذلك إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّبِعُونِي وَأَطِئُوا أَمْرِي مِنَ دُونِ أَمْرِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِشَيْءٍ إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ جِئْتُمْ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ** ﴾ [المائدة: ١١٦] .

ثم يقول ابن مريم: قال تعالى: ﴿ **إِن تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّكُمْ عَادُونَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الْكَرِيمُ** ﴾ [المائدة: ١١٨] .

كون عيسى ابن مريم عليهما السلام يقول: ﴿ **إِن تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّكُمْ عَادُونَ** ﴾ ؛ فهذه مفروغ منها، فنحن جميعا عباد الله مقهورون لإرادته، خاضعون له سبحانه وتعالى ولقضائه، ثم يقول عيسى ابن مريم: ﴿ **وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ** ﴾ هذا طبعاً ما يرجوه كل إنسان من الله سبحانه وتعالى الرحمة والمغفرة، ولكن هنا يتبع كلمة ﴿ **وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الْكَرِيمُ** ﴾ لماذا لم يقل أنت الغفور الرحيم؟ هنا موقف غفران فلماذا العزة في موقف الغفران، وليست المغفرة والرحمة، يقول بعض الناس: إن العبارة غير متمشية، وإن سياق الكلام كان يقتضى أن يقول عيسى ابن مريم: «إنك أنت الغفور الرحيم» ونحن نقول: إن كل من يشير هذا الكلام لا يفهم إعجاز القرآن، فنقول ابن مريم: ﴿ **وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ** ﴾ يحمل المعنى نفسه في فإنك أنت الغفور وإلا إن لم تكن غفورا فكيف تغفر، ولكن قوله: ﴿ **فَإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الْكَرِيمُ** ﴾ ما سبب وضع ﴿ **الرَّحِيمُ الْكَرِيمُ** ﴾ هنا، هل الآية سخومة بما لا يتمشى مع العقل؟

الآية مختومة بعبارة من أبلغ ما يمكن، هنا في مطلب الغفران، وهو يدعو الله أن يغفر لعباده، فيقول له: ﴿ **وَإِن تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ** ﴾، أى الذى لا يحاسبه أحد على ما يفعل، فلا أحد سيأتى ليقول لله لماذا غفرت لهؤلاء الناس الذين عصوا؟ لأنك أنت العزيز لا يحاسبه أحد، وليس فوقه قوة، فأنت ياربي إن أردت أنت تغفر لهم فهى مشيئة رحمتك، فإنك قادر، لماذا؟ لأنك أنت العزيز تستطيع أن تفعل ذلك من دون أن يسألك أحد الحكيم الذى يتم كل أمر منك بحكمة .

وهكذا نرى أن هذه الكلمة وضعت بحكمة زيادة فى الاستغفار، زيادة فى طلب

المغفرة يا رب اغفر لهم إنك أنت العزيز، لا يحاسبك أحد، ولا يعقب عليك وبالتالي فنحن نلوذ بشيئين: بأنك غفور رحيم، وبأنك عزيز حكيم، غفور تغفر الذنوب للعاصيين، وعزيز تستطيع أن تغفر ما تشاء لمن تشاء بلا قيود، ولا يحاسبك أحد على ما تفعل، ولا يعتب عليك، ولا يسألك... إنك تستطيع أن تغفر الذنوب مهما بلغت، هل وضح الآن معنى استخدام كلمة: ﴿الْعَزِيزُ﴾ ١٩

نتقل بعد ذلك إلى نقطة ثانية، في الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَسْأَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ [النساء: ١١٠].

بعض الناس يتساءل: أليست الفاحشة والسوء هما ظلم الناس، إتهما الشيء نفسه فالذي يظلم نفسه يقودها إلى العذاب، والذي يفعل فاحشة يقود نفسه إلى العذاب، الشيء نفسه بل إن بعض الناس يقولون: إن العطف هنا غير واجب.

ولكنني أقول لهم: إن دقة التعبير، ودقة اللفظ من دقة القائل، والله سبحانه وتعالى يبين لنا إعجاز القرآن، ويقول لنا: إن هناك فارقا بين من يفعل سوءا أو فاحشة، ومن يظلم نفسه فما هو هذا الفارق؟

الذي يفعل سوءا أو فاحشة يفعلها ليحقق لذة عاجلة، نفس ضعيفة يغلبها الهوى وتخضع لبريق الدنيا، إنسان شرب الخمر، حقق لنفسه لذة الخمر، إنسان زنى، حقق لنفسه شهوة عاجلة، إنسان سرق مال غيره، حقق لنفسه شهوة عاجلة بالتمتع بهذا المال هذا هو الإنسان الذي يفعل السوء أو الفاحشة، أما الإنسان الذي ظلم نفسه فهو إنسان آخر إنه يرتكب إثما ولا يستفيد منه، لا يعطى نفسه شيئا في الدنيا ولا في الآخرة حينئذ يكون قد ظلم نفسه، بمعنى أنه لا أعطها شيئا عاجلا، ولا نجاها من عذاب الآخرة.

ومن الناس من يبيع دينه بدنياه، ومنهم من يبيع دينه بدنيا غيره، الذي يبيع دينه بدنياه يطلب العاجلة، أما من باع دينه بدنيا غيره، فقد خاب في الأولى والآخرة، هو الذي ظلم نفسه، ولكن كيف يظلم الإنسان نفسه؟ فالإنسان حين يشهد زورا ليؤذي غيره لم يستفد شيئا فقد ظلم نفسه وارتكب إثم شهادة الزور بدون أن يحقق نفعا دنيويا إذا قبض ثمن شهادة الزور، يكون قد حقق نفعا دنيويا، ولكن الذي يظلم نفسه هو الذي يفعل ذلك ليرضى غيره، وتجد كثيرين في الدنيا مثل هؤلاء.

إنسان يتهم إنسانا آخر بتهمة باطلة، لا يستفيد هو شيئا، ويرتكب الإثم، إذن هو ظلم نفسه، إنسان يكتب تقريرا كاذبا في إنسان ليمنع ترقينه، أو يتطوع بحديث يخلفه عن شخص ليمنع الخير عنه أو يؤذيه، أو يشي بشخص كذبا ليدخله السجن أو يضعه في الاعتقال، أو يتجسس على إنسان ليلحق له تهمة لمجرد الانتقام التافه، كل هؤلاء يظلمون

أنفسهم، إنهم يرتكبون الإثم في الدنيا، ولا يجعلون له فائدة لا في دنياهم، ولا في آخرتهم، فكان الذي ظلم نفسه هو الذي جعلها تدخل النار، هو الذي جعلها ترتكب الإثم، وفي الوقت نفسه لم يعطها شيئاً على وجه الإطلاق، فهو ظالم لنفسه في الدنيا ظالم لنفسه في الآخرة، وهنا فرق بين التعبيرين، ومن هنا لا نقول أبداً عطف، ولا ألفاظ مترادفة بل دقة بالغة في التعبير.

تعبير آخر في القرآن الكريم، والقرآن الكريم ملئ بالتعبيرات الدقيقة، نجد أن الله سبحانه وتعالى حين يستخدم كلمة نور وظلام في القرآن الكريم يقول: ﴿نُورٌ﴾ [المائدة: ١٥] ويقول: ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ [البقرة: ١٩] وظلمة، ولكنه لا يقول: أنوار أبداً. هناك نور وظلمة، وهناك نور وظلمات ولكن الله تعالى لا يستخدم كلمة: «أنوار». إنه يخرج الناس ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وليس إلى الأنوار، لماذا؟ مع أن المنطقي أن يقال يخرج الناس من الظلمات إلى الأنوار نقول له: إنك لم تع الحقيقة جيداً، في الدنيا هناك ظلمات كثيرة، ولكن ليس هناك أنوار هناك نور واحد هو نور الله سبحانه وتعالى، نور الحق، ولذلك لا يستخدم الله سبحانه وتعالى إلا كلمة نور، لأن النور هو نور الحق، ولا نور غيره.

لكل نفس هوى، الهوى هو ظلمة، وظلمة هذا غير ظلمة ذلك، الإنسان في كثير من الأحيان هو عبد لأهوائه، والأهواء تختلف، ومن هنا يأتي الصراع في الدنيا: القتل، السرقة، الاعتداء على الغير، إلى آخر ما تشهده من صراع الحياة في كل مكان.

هذه ظلمات، كل في ظلمة مختلفة تبع هوى صاحبها، هذا يقول كلاماً، وهذا يقول كلاماً آخر، هذا يريد أن يحقق شيئاً، وذلك يريد أن يحقق شيئاً آخر، كل إنسان يريد أن يأخذ ما لاحق له فيه، وكل إنسان يتحدث بما يعتقد أنه يحقق له هواء، إنسان يقول الشيوعية، وآخر يقول الرأسمالية، وثالث يقول الاشتراكية، هذه كلها كلمات وراءها هوى النفس، يعتقد الإنسان أنه يستطيع أن يحققه، أن يعلم في الأرض... أن يستبيح مال وحرمان غيره، أن يذل الناس بما أعطاه الله له من مركز، أو مال، أو سلطان.

إذن... هي ظلمات كثيرة، كل إنسان منا له هواء، ولكن الله سبحانه وتعالى الحق، وهو الذي وضع النور، ليتمكن الإنسان من أن يعيش عيشة راضية مطمئنة، هذا النهج للحياة رسمه الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، أما كل ما نتخبط فيه بعيداً عن منهج الله فهو ظلمات، ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يخرجنا من ظلمات كثيرة إلى نور واحد، هو نوره، هو طريقه، هو الحق.

الله سبحانه وتعالى حين يستخدم كلمة ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ يتحدث عن أهواء الناس، وهي مختلفة، وحين يستخدم كلمة: ﴿نُورٌ﴾ فهو يتحدث عن شيء واحد هو منهجه طريقه

دينه هو النور، وإذا اتفقنا على خير لا يمكن أن نختلف، لا يمكن أن تجد خلافا بين أناس في قلوبهم الخير، ورغبتهم إلى الخير، وعملهم الخير، لا يمكن أن يختلفوا، ولا يمكن أن يكون الصراع والشقاء إلا على تحقيق أهواء النفس في الدنيا، هل عرفت الحكمة من استخدام الله سبحانه وتعالى ﴿ طَلَبْتُمْ ﴾ بالجمع، وعدم استخدامه لكلمة أنوار، لأن هناك نورا واحدا هو نور الله سبحانه وتعالى.

هذه هي بعض الأمثلة البسيطة جدا، والقرآن مليء بالإعجاز، الإعجاز والدقة في التعبير واللفظ في مكانه، فإذا تغير عن مكانه وإنما يريد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى معنى آخر إلى شيء آخر، ليس هناك مترادفات. . . وليست هناك ألفاظ لا تنسم بالدقة وليس هناك كلمة في غير موضعها، وإنما دقة متناهية في التعبير، دقة متناهية في البلاغة ولكن بعض المستشرقين الذين يحاولون أن يضلوا عن سبيل الله، أو الذين يدرسون القرآن الكريم ليحاربوه يقولون: إن في القرآن تناقضا، ويزيدون على ذلك بأن هذا التناقض طبيعي لأن قائل القرآن - كما يدعون - هو محمد عليه السلام، بشر فإنه أحيانا ينسى، وأحيانا يمر عليه الزمن فيقول عكس ما قال، إلى آخر ما في طبيعة البشر من عدم التذكر وخصوصا في الفترة الطويلة، ويتحدثون عن التناقض في القرآن الكريم، وأنا سأحدثكم عن التناقض الذي يدعونه.



## خلق السماوات والأرض.. وزعمهم تناقض القرآن

السؤال الذى شغل بال المستشرقين، وكل من يريد أن يحارب هذا الدين، هو الادعاء بأن هناك تناقضا فى القرآن الكريم، ولو بذل هؤلاء الناس لفهم القرآن الكريم الجهد نفسه الذى بذلوه فى محاولة إظهار ما أسموه بالتناقض فى القرآن الكريم لاستطاعوا أن يصلوا إلى عظمة القرآن. وإلى معجزة القرآن وإلى الدقة البالغة فى كلام الله سبحانه وتعالى، ولكن المستشرقين يحاولون أن يأخذوا من المعجزة، أهم ما فيها وهو أنها كلام الله سبحانه وتعالى وفى محاولاتهم هذه يلجأون إلى إظهار ما يُسمونه «التناقضات»، أو يطلقون عليه اسم «الأشياء المتناقضة». فى القرآن الكريم، وأساس هذا الاتجاه هو أن المعجزة وهى القرآن كلام الله سبحانه وتعالى، وأن الله سبحانه وتعالى منزّه عن الخطأ، منزّه عن النسيان، منزّه عن كل ما فى البشر من تناقض وبالتالي فإن وجود أى تناقض - ولو كان ظاهريا فى القرآن الكريم - يساعدهم على عدم الإيمان بالمعجزة، وعلى ادعاء أن هذا الكلام قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس منزلا من عند الله.

ولكن الإعجاز القرآنى، الذى هو موجود فى كل حرف من القرآن، إنما يظهر أمامهم بهذه الصورة ليجعلهم شهداء على المعجزة، وليجعلهم وهم يحاولون أن يحاربوا هذا الدين وأن يشوهوا هذا الكتاب الكريم يبينون معجزاته، ويظهرون ما خفى منها، إذ أنهم يثيرون مما يزعمونه أشياء تجعل العقل البشرى ينشط فى محاولة للرد عليهم، وبالتالي فإنه فى بحثه فى القرآن الكريم تتبين المعجزة، ويتبين أن هذا الكلام هو كلام الله سبحانه وتعالى المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

ولنبداً الحدث من أوله، ماذا قال المستشرقون، قالوا: كلام بشر، هل هو كلام بشر فعلا؟ تعالوا ناقش ما أثاروه قضية قضية، وإن كان هذا يحتاج إلى كتاب مستقل.

جاءوا فى أول الأشياء بالخلق، خلق السماوات والأرض، شيء هو من صنع الله سبحانه وتعالى. حينما يتحدث عنه القرآن الكريم، فهو يتحدث عن شيء لا يعلمه إلا الله وبالتالي فإن أى تناقض ظاهرى فى هذه العملية مسألة تخدم قضيتهم فى محاربة هذا الدين ماذا قال المستشرقون؟ قالوا: إن القرآن الكريم قال فى عدة سور: إن الأرض والسماوات خلقنا فى ستة أيام، وفى سورة فصلت: أن أيام الخلق ثمانية وقالوا: إنها هفوة بشرية، ونسيان.

خرجوا من ذلك بأن قائل هذا الكلام هو محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا هو هدفهم تعالوا نناقش ماذا قال القرآن الكريم في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقال الله سبحانه وتعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [يونس: ٣]. وفي سورة الفرقان: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

إذن.. أجمعت كل هذه الآيات على أن خلق السموات والأرض وما بينهما تم في ستة أيام، لا خلاف في ذلك ولا جدال، فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى سورة فصلت؛ حيث فصل الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض يأتي في الآية التي تقول: ﴿قُلْ أَلَيْسَ لَكُمْ نُكُورٌ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُومِيًّا مِنْ قَوْفِهَا وَبَنَّا فِيهَا قُرُونًا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ أُنزِلَتْ فِيهَا السَّمَاءُ فَتُصَبُّ مِنْهَا صَعِيدٌ فَطِينٌ وَإِنَّا لَنَزَّلُنَا مُزِدًا لَكُنُوزًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا قَالُوا إِنَّمَا أَنبِيَاءُ طُغْيَانًا أَوْ كُرْهًا قَالُوا إِنَّمَا أَنبِيَاءُ عَالَمِينَ﴾ فَتَقَطَّعْنَهُمْ حَشَعِ سَكُونًا فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ صَمَاءٍ أَمْرَهُمَا﴾ [فصلت]. إذا أحصينا عدد الأيام في السورة الكريمة، نجد أن الله سبحانه وتعالى يقول: إنه خلق الأرض في يومين وجعل فيها رواسي من فوقها، وقدر فيها أوقاتها في أربعة أيام، ثم استوى إلى السماء، ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَقَطَّعْنَهُمْ حَشَعِ سَكُونًا فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ صَمَاءٍ أَمْرَهُمَا﴾.

إذا أحصينا أيام الخلق في سورة «فصلت» نجد أنها ثمانية، يومان لخلق الأرض، وأربعة أيام قدر فيها رزقها وبارك فيها، أيام الخلق هذه ستة أيام، يومان آخران للسموات. إذن فهي ثمانية أيام.

يأتي هنا المستشرقون ليقولوا: إن القرآن الكريم تناقض مع نفسه.. وأنه يقول في عدة آيات أن خلق السموات والأرض تم في ستة أيام، ثم يأتي ليقول إن الخلق تم في ثمانية أيام ويضيفون: إن هذه غفلة لأن قائله بشر.

ولو أننا دققنا في الآية الكريمة التي يجادلون فيها لوجدنا بدايتها تختلف عن الآيات السابقة، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُلْ أَلَيْسَ لَكُمْ نُكُورٌ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

ومن هنا بدأت الآية بمخاطبة الكافرين الذين يجعلون لله أندادا، ويجادلون فيه، أي إن الله سبحانه وتعالى أراد أن يخبرنا أن الذي يستخدم هذه الآية الكريمة في التشكيك في القرآن الكريم، هم أولئك الكافرون الذين يريدون أن ينشروا ويلبغوا الكفر بين الناس ويريدون أن يجعلوا لله أندادا، وهم في الحالتين غير مؤمنين، يحاربون الله، ويحاربون دينه إن بداية هذه الآية معجزة؛ لأن الذين يجادلون فيها هم أولئك الذين يحاربون هذا الدين ويكفرون بالله ويحاولون التشكيك، فكون الله سبحانه وتعالى قال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾.

وقال: ﴿ قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ ﴾ .

كأنما هو يخاطب هنا أولئك الذين سيأتون بعد قرون عديدة ليشككوا في القرآن الكريم مستخدمين هذه الآية بالذات في محاولة التشكيك .

ونحن نقول لهم: إن من يقول هذا الكلام، إما أن يكون متعمداً أو غافلاً عن مدلولات النص، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَتَمَنَّوْنَ لَهُ إِدَانًا ﴾ .

ثم يقول تعالى: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِنْ قَوْفِهَا وَبَنَى فِيهَا آفَاقَهَا ﴾ .

إذن . . فالله سبحانه وتعالى يتحدث هنا عن إتمام خلق الأرض، هو يعطينا تفصيل الخلق فيقول: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِنْ قَوْفِهَا وَبَنَى فِيهَا آفَاقَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ .

مادام الحديث تنمة للشئ نفسه الذى بدأ الكلام عنه، وهو الأرض، أى إن الله سبحانه وتعالى لم ينتقل إلى الحديث عن السماوات، وإنما هو يفصل كيفية خلق الأرض فهو يتم لنا زمن خلق الأرض، فهو يقول: إننى خلقت الأرض فى يومين، ثم أتممت خلقها فى أربعة أيام، إذن . . فمدة الخلق كلها بالنسبة للأرض هى أربعة أيام، وليست ستة .

ولنضرب مثلاً يقرب ما نقوله للأذهان، إذا فرض أننى ذاهب إلى الإسكندرية، وأن القطار سيتوقف فى مدينة طنطا، فأنا أقول: إن القطار سيتوقف فى مدينة طنطا بعد ساعة وفى الإسكندرية بعد ساعتين ونصف، فهل معنى ذلك أن المسافة بين القاهرة والإسكندرية ثلاث ساعات ونصف؟ أبدأ، المسافة بين القاهرة والإسكندرية هى التى ذكرتها مؤخراً أما الساعة التى سيستغرقها القطار من القاهرة إلى طنطا فهذه جزء يدخل ضمن الساعتين والنصف، لماذا؟ لأن طنطا جزء من الطريق بين القاهرة والإسكندرية، والله سبحانه وتعالى يتحدث عن خلق الأرض، فهو يقول سبحانه وتعالى: إننى خلقت الأرض فى يومين، ثم أتممت عملية الخلق بأن جعلت فيها رواسى من فوقها، وباركت فيها وقدرت أوقاتها فى أربعة أيام، كأن الأيام الأربعة هى كل الفترة التى استغرقتها عملية خلق الأرض منها يومان لخلق الأرض، ويومان لإتمام الخلق بأن جعل الله سبحانه وتعالى ﴿ رُوسًا مِنْ قَوْفِهَا وَبَنَى فِيهَا آفَاقَهَا ﴾ المدة كلها هى أربعة أيام، وليست ستة أيام، الله سبحانه وتعالى أراد أن يفسر لنا أنه خلق الأرض فى يومين ثم أتم خلقها بكل ما فيها من أوقات ورواسى بما فى ذلك خلق الأرض نفسها أربعة أيام، فكان اليومين الأولين جزء من الأيام الأربعة التى استغرقتها خلق الأرض، مثل بالضبط عندما نقول: إن القطار يستغرق من القاهرة إلى الإسكندرية ساعتين ونصف، وبين القاهرة وطنطا ساعة، المسافة كلها ساعتان ونصف ولكنك أردت أن تفصل الجزء من الكل، فذكرت بالتفسير جزءاً من

الكل وليس معنى هذا، أن هذا الجزء إضافة للخلق، هذا جزء من الكل نستخدمه جميعاً في حياتنا اليومية كل يوم، أقول وضعت أساس العمارة في ثلاثة أشهر، أتممت بناءها في عام هل معنى ذلك أن العمارة استغرقت عاماً وثلاثة أشهر؟ لا، لقد أتممتها في عام، ولكن جزء الأساس استغرق ثلاثة أشهر من عام البناء، هنا تحدثت بالتفصيل، والجزء من الكل ليس منفصلاً، ولا زائداً عنه، نقول هذا المشروع تنم مرحلته الأولى في عام، وينتهي في عامين هل معناه أنه يستغرق ثلاثة أعوام؟ لا، فقط عامين؛ لأن المرحلة الأولى هي جزء من الكل.

الله سبحانه وتعالى لم يفصل لنا في الآيات السابقة مراحل الخلق ولكنه أتى به مجملاً إنما في سورة «فصلت»، تحدث أولاً عن خلق الأرض، خلق الأرض نفسها في يومين ثم أتم الخلق بأن جعل فيها رواسب، وبارك فيها أقواتها في أربعة أيام، هذه مرحلة الأرض استغرقت أربعة أيام، ثم بعد ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ** ﴾ [فصلت: ١١].

هنا انتقل الله سبحانه وتعالى من عملية خلق الأرض إلى خلق السماء، فقال تعالى: ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ** ﴾.

مرحلة جديدة بعد إتمام خلق الأرض، إذن فإتمام خلق الأرض استغرق أربعة أيام وخلق السماوات يومين، فأيام الخلق ستة، وهما من أيام الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَأَنَّكُمْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ** ﴾ [الحج: ٤٧].

وهكذا نجد أن التناقض وهمي، وأن المستشرقين أرادوا أن يستغلوا عملية تفصيل الخلق التي أوردها الله في سورة فصلت ليشككوا في القرآن، وكان الله عليهما قبل أن يبدأوا تبدأ الآية الكريمة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **أَلَيْسَ لَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَتَخَلَّفُونَ لَهُمْ آدَاءً** ﴾ [فصلت: ٩].

وبدأها بهذا الكلام ليقول لنا من هم الذين سيجادلون في هذه الآية وينشرونها بالطريقة التي تهواها أنفسهم للإضلال عن سبيل الله.

## الود والمعروف.. ودعوى التناقض

نأتى بعد ذلك إلى شيء آخر، قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِسْقَانًا﴾ [المجادلة: ٢٢].

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ جِهَةٌ فَلَا تَطِعَهُمَا وَصَاحِبَتَاهُمَا الْأُنثَىٰ مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

يأتى المستشرقون، وكل من يحاول التشكيك في هذا الدين يقول ما هذا؟ فى الآية الأولى الله سبحانه وتعالى ينهانا عن أن نواد من حاد الله ورسوله، ولو كانوا آباءنا، وفى الآية الثانية فى سورة لقمان يقول: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ جِهَةٌ فَلَا تَطِعَهُمَا وَصَاحِبَتَاهُمَا الْأُنثَىٰ مَعْرُوفًا﴾.

إذن.. فى الآية الأولى يقول لا توادهم، وفى الآية الثانية يقول وصاحبهما معروفا كيف يمكن أن يستقيم أمران مختلفان فى الشيء نفسه.  
نقول: إنه ليس هناك أى اختلاف، ولكنك لا تفهم دقة تعبير القرآن الكريم، والمفهوم فى القرآن الكريم.

ولنشرح ذلك بالتفصيل، المعروف يفعله الرجل لمن يحبه قلبه ومن لا يحب، ذلك أنك يمكن أن تسير فى الطريق فتجد إنسانا لا تعرفه، ولا تربطك به أى علاقة، ولكنك تجده فى مازق فتسدى إليه معروفا لتنقذه، كأن يكون قد فقد حافظة نقوده مثلاً فتعطيه مبلغا من المال ليصل إلى منزله، أو تقدم له معونة. قد يكون جانعا فتعطيه ثمن الطعام أنت هنا تفعل معروفا عسى الله أن يجزيك عنه، ولكن لا يربطك بالإنسان الآخر أى صلة، هذا هو المعروف، ولكن المودة مكانها القلب، هى فى القلب، أنت لا تود إلا من تحب، لا تريد أن تجلس أو تعيش إلا مع من تحب، المعروف لا يمس القلب، ولكن المودة تمس القلب القلب فى المودة يكون مع الشخص، والقلب فى المعروف لا يكون معه وإذا كان القلب مع إنسان غير مؤمن فهو قلب غير مؤمن، والله لا يجعل لك قلبين فى صدرك، مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤].

إنما امتداد المعروف هو رضاء الله سبحانه وتعالى.

نأتى بعد ذلك إلى الآية الكريمة، الله تعالى يقول فى سورة المجادلة: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، هنا استخدم

اللَّهِ سبحانه وتعالى كلمة الود، وكلمة الود هي التي تمس القلب، هنا لا تجد مثلاً إنساناً مؤمناً يحب إنساناً يحارب الله ورسوله، حتى ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم هم الحب من داخل القلب، من داخل النفس، ثم يأتي الله سبحانه وتعالى في مسألة الوالدين وينهاها إن حاولوا أن يمسا الإيمان في قلوبنا أن نستخدم العنف ضدّهما، أو نفعل أي شيء وهم في هذه الحالة يكونون في سن كبيرة ضعفاء، اقتربوا من نهاية العمر هؤلاء الذين قدموا لنا المعروف بأنهم قاموا بتربيتنا، وبالسهر علينا، يأمرنا الله سبحانه وتعالى أن نحفظ لهم بالود إن كانوا مؤمنين، وبالحب الكبير، وإذا حاولوا أن يدخلوا الشرك إلى قلوبنا أو حاولوا أن يجعلونا نشرك بالله سبحانه وتعالى، يطالبنا بالأ نطيعهما ولكن نصاحبهما في الدنيا معروفاً، أدب القرآن الكريم، نفعل ذلك إرضاءً لله سبحانه وتعالى، وإرضاءً للجميل، ولكن القلب لا يودهم، المعروف لمن تحبه ومن لا تحبه، أما الود فلن تحب فقط. أنت حين تسدى لهما معروفاً أي تعاملهما معاملة حسنة، ولكن ليس بقلبك لأنهما يحاولان أن يدفعاك للشرك تفعل ذلك إرضاءً لله سبحانه وتعالى الذي يأبى إلا أن يكون رحيماً حتى مع من يعصاه والذي ينهانا عن أن نقابل الإحسان بالإساءة، والمعروف شيء، والود شيء آخر تماماً قلب مع الله لا يدخل فيه كافر ولا من يحاول أن يشرك به.

أما المعروف الذي أسديه إلى والديّ فأمرني الله به، رحمة بهما، ﴿كَرِيمًا صَدِيقًا﴾ إذ إن مناقشة الإيمان بين الابن والديه، لا تتم إلا إذا بلغ الابن مرتبة الرجولة وفي هذه الحالة يكون الأم والأب قد بلغا مرحلة الكهولة، وعلى أن أعاملهما بالمعروف رداً للجميل وإرضاءً لله سبحانه وتعالى الذي لا يقبل الجحود، لكن المعروف ليس بقلبي، وهذا مختلف تماماً عن ذلك.

نتقل بعد ذلك إلى نقطة ثالثة، فالآيات التي ذكرت في القرآن الكريم، نجد أن الله سبحانه وتعالى يوصي بالوالدين، ثم لا يذكر إلا الأم، مثلاً في سورة الأحقاف: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَحَمْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَنَبَغَ أَرْبَعِينَ سَنًا قَالَ رَبِّ ارْحَمْنِي إِنَّ شُكْرِي بِمَنَّةِكَ إِلَهِي أَتَمَنَّتْ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّْ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وفي سورة لقمان: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَوَصَّيْنَا فِي عَمَتَيْهِ أَنْ تُشْكُرَ لِي وَوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْوَالِدِ﴾ [لقمان: ١٤].

نجد أن الله سبحانه وتعالى أوصى بالوالدين، ثم ذكر الأم وحدها بدون الأب، يأتي هنا بعض المستشرقين ويسألون: كيف أن الله سبحانه وتعالى لم يوص إلا بالأم، ثم ذكر في أول الآية الأم والأب، وفي آخر الآية الأم، بدون أن يوصى بالأب، ثم الله سبحانه وتعالى في هذه الآية يوصى من؟ هل هو يوصي الطفل وهو رضيع في حالة الحمل والولادة وهل يفقه هذا الطفل شيئاً، وهل يقرأ القرآن أو يعقل، هل يذكر الطفل شيئاً عن هذه المرحلة، إذن... من يخاطب القرآن؟ إذا كان يخاطب الطفل وهو رضيع، فهو



## أتى أمر الله.. والفهم السقيم للمستشرقين

وبعضى المستشرقون فى الحديث عن القرآن الكريم فيقولون: إنه فى سورة النحل يقول القرآن: ﴿أَنزَأْمُرُ أَهْمَ فَلَآ تَسْتَعْجِلُوْا﴾ .

كيف يمكن أن يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَنزَأ﴾ ثم يقول: ﴿فَلَآ تَسْتَعْجِلُوْا﴾ ، ﴿أَنزَأ﴾ فعل ماض ؛ لأنه حدث ، ﴿فَلَآ تَسْتَعْجِلُوْا﴾ مستقبل ، كيف يمضى هذا مع ذلك ، نقول لهم : أنت حين تتحدث عن الله سبحانه وتعالى ، فيجب أن تضع فى عقلك وذهنك وتفكيرك أن الله ليس كمثله شىء ، أنت لك قوة ، ولله قوة ، ولكن هل قوتك كقوة الله سبحانه وتعالى؟ أنت لك قدرة ولله قدرة ، ولكن هل قدرتك كقدرة الله سبحانه وتعالى؟ أنت تعيش فى الزمن ، والله سبحانه وتعالى لا زمن عنده ، إنه منزه عن الزمن ﴿أَنزَأ﴾ هذه فى علم الله سبحانه وتعالى حدث ، ومنى قال الله سبحانه: ﴿أَنزَأ﴾ فقد حدث وتم ، وانتهى فى علم الله سبحانه وتعالى فى علم اليقين ، ولكن الأشياء تخرج من علم الله سبحانه وتعالى إلى علم البشر ، تخرج بكلمة: ﴿كُنْ﴾ الله سبحانه وتعالى حين يريد أن ينقل شيئاً من علمه سبحانه وتعالى إلى علم الإنسان فإن كلمة: ﴿كُنْ﴾ تكون الأمر الذى يحمل التنفيذ .

الله سبحانه وتعالى عنده علم الساعة ، وما دام قد تقرر ، فليست هناك قوة فى هذه الدنيا تستطيع أن تمنع حدوثه ، إنه آت لا محالة ، فلا تطلبوه بكلمة: ﴿كُنْ﴾ ، وأنتم فى عجلة ، لماذا؟! .

لأن المؤمن الحقيقى إذا كان يخشى شيئاً فإنه يخشى يوم الساعة ، يوم الحساب ، وإذا كان يخشى شيئاً ، يخشى عدل الله سبحانه وتعالى ، الذى لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها: ﴿وَوَجِدْهُ وَأَمَّا عَمَلُوا حَاسِرًا﴾ [الكهف: ٤٩] .

الصغيرة قبل الكبيرة ، وإذا كان لا يترك شيئاً صغيراً فمماذا يفعل فى الكبار والإيمان المؤمن يخاف يوم الحساب ويخشاه مهما كان إيمانه ، إنه يرتعد من هول ذلك اليوم ، أما الإنسان الكافر المتحدى فإنه هو الذى عن جهل ، وعن عدم إدراك لا يعرف معنى الآخرة ولا معنى الحساب ، ومن هنا فهو يستعجل ، يريد أن يصل إلى الآخرة ولو علم ما فيها وما ينتظره فيها ، لما ذكرها على لسانه ، فحينما يقول الله: ﴿أَنزَأْمُرُ أَهْمَ فَلَآ تَسْتَعْجِلُوْا﴾ ، أى إن الساعة تقرر ، وانتهى أمرها ، تم الأمر فلا تستعجلوه . . لا تتعجلوا يوم الحساب إنكم

تجهلون ما فيه من أهوال، إذن فهي بالنسبة لله تم وانتهى، ولكنه بالنسبة لى فأنا مستقبل، فليس هناك أى تناقض بين استخدام الماضى والمستقبل؛ لأن أتى أمر الله فى علم الله سبحانه وتعالى، ولكنه فى علمى أنا فى إدراكى أنا، وحتى يصل إلى أنا لا يزال مستقبلا حينما يقول الله كلمة: ﴿ كُن ﴾، وينفخ فى الصور، وهل يملك إنسان أن يمنع الله سبحانه وتعالى من تنفيذ أمر قدره، لا قدرة فوق قدرة الله، من الذى يمنع أمر الله أن يأتى مادام قد قال: ﴿ أَنْتَ ﴾؟ أنت لا تملك مقومات الغد، ولكن الذى يملك مقومات الغد هو الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَنْتَ ﴾، إذن . فقد تم فعلا، ولكنه محجوب عنى، لذلك قال تعالى: ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلْهُ ﴾.

ننتقل بعد ذلك إلى نقطة أخرى، يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الفيل مخاطبا محمدا صلى الله عليه وسلم: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَمَعْنَا رَجُلَيْكَ يَا صَاحِبَ الْفِيلِ ﴾ [الفيل: ١].

بعض المستشرقين يقول: هذا قصور فى التعبير، ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾، هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم عام الفيل، لقد ولد فى عام الفيل، إنه لم يره، لو قال الله سبحانه وتعالى ألم تعلم، لقلنا علم عن غيره، فالعلم قد تحصل عليه أنت، وقد تحصل عليه عن طريق من علمه من غيرك من البشر، ولكن الله سبحانه وتعالى حين يقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾، يقول المستشرقون فى هذا: إن التعبير قد خان محمدا عليه الصلاة والسلام، وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ مجافاة لحقيقة واقعة ثابتة.

ولكن الذى فات هؤلاء أن هذه قضية من قضايا الإيمان، ما يقوله الله سبحانه وتعالى للإنسان المؤمن، هو رؤيا صادقة، والقرآن هو كلام مُعَبَّد بتلاوته لا يتغير ولا يتبدل فعندما يقول الله: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾، معناها: أن الرؤيا مشمرة لكل مؤمن بالله، ذلك لأن الرؤيا هنا رؤيا معجزة كبرى، والله يريدنا أن نثبت فى عقولنا، كما ثبتت الرؤيا تماما لماذا؟ لأن قضية الإيمان الكبرى هنا هي أن الله سبحانه وتعالى فى معجزة قد خلق من الضعف قوة وهذه لا يستطيع أن يفعلها إلا الله.

أنا أستطيع أن أعين شخصا ضعيفا، على أن يحمل حملا ثقيلًا، بأن أحمل عنه هذا الحمل، ولكنى لا أستطيع ولا أقدر أن أجعل هذا الرجل الضعيف قويا، بحيث يقوم هو بنفسه بحمل هذا الحمل الثقيل، ولكن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يستطيع أن يخلق من هذا الضعيف الذى لا حول له ولا قوة، قويا يهزم أقوى أقوياء العالم، وأقوى ملوك الدنيا، وهو إنسان ضعيف لا حول له ولا قوة. هذه هي إحدى معجزات الله ومن هنا فإن الذى حدث فى عام الفيل أن طيرا أبابيل تمسك فى مناقيرها حجارة صغيرة جاءت وهزمت جيشا من الأفيال، أقوى جيش فى العالم، فى ذلك الوقت ولو أننى عقلا ومنطقا قلت لإنسان إن طيرا، أو مجموعة من العصافير قد هزمت فيلا لسخر منى، ذلك أن الفيل يستطيع أن يهلك مئات الطيور بدون أن يصاب بأذى، بل إن الطير يقف على ظهر الفيل،

فلا يحس الفيل به، فكيف تكون هذه تأتي وكونها تغنى هذا الجيش العظيم، فقد استخدم الله أضعف مخلوقاته، ليهزم خلقا من أقوى مخلوقاته، وهذه معجزة لا يمكن أن تتم إلا على يد الله سبحانه وتعالى.

بل إن بعض العلماء قد أخذ يشكك في هذه الناحية من كثرة ما تناولها المستشرقون فأدعى أو قال بعضهم: إن الذي فتك بجيش أبرهة، هو الأمراض والجراثيم التي سلطها الله على هذا الجيش، وأنا لا أتفق مع هذا المعنى، فعام الفيل حدث عند مولد الرسول صلى الله عليه وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بُعث في الأربعين من عمره... أي إنه في ذلك الوقت كان هناك من هم في سن الخامسة والخمسين، والستين والخامسة والستين والسبعين، ومن هم فوق ذلك، ممن رأوا عام الفيل، ورأى العين ولو أنه لم تأت هذه الطير ولو أنها لم تلتق بحجارة من سجيل، ولو أنها لم تجعل هذا الجيش عُصفاً مأكولاً، وهو ما يحتاج إلى أسابيع بالنسبة لأي جسم حيواني، أو بشري لكان هؤلاء الناس قد قاموا وقالوا: إن ما يقوله محمد غير صحيح، لقد شهدنا عام الفيل، ولم نر طيرا تأتي، ولم نرها تغنى أعظم جيش بأحجار صغيرة تحملها في مناقيرها، ولم نر هذا الجيش يتحول إلى عصف مأكول في لحظات! فلأن أحدا لم يستطع أن يكذب هذه الواقعة، وقت نزولها ممن رأوها دليل على أنها حدثت كما رويت في القرآن الكريم، وليست محتاجة إلى تفسير؛ لأن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء، ومن هنا فإنه في القضايا الإيمانية يكون كلام الله سبحانه وتعالى هو الرؤية الدائمة التي تتمثل أماننا، والتي تتكرر باستمرار في الحياة، فكم من ضعيف نصره الله على أقوى الأقوياء، وكم من قوى خذله الله وجعل نهايته على يد أضعف الضعفاء.

كلام الله سبحانه وتعالى بالنسبة للمؤمن، هو يقيني بمشابة الرؤية الدائمة، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، ولم يقل رأيت، أو علمت، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ حاضر متجدد مستمر بحيث يحدث وسيحدث على مر السنين إلى يوم الساعة، إنه قضية الحق ينصر الله المظلوم، مهما كانت قوة الظالم، ومهما كان ضعف المظلوم، تلك قضية إيمانية كبرى يجب أن تراها في قلبك إذا كنت مؤمنا، وتراها رؤية اليقين ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، هذا هو الإيمان، وهذه هي الحكمة في استخدام كلمة: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، تجعل المؤمن يحس بقوة الله وقدرة الله في كل ما يحدث، بالنسبة للحق والباطل، وقضايا الحق، وقضايا الباطل حتى قيام الساعة.

## الشهادة الحق: قول اللسان ما وقر في القلب

نمضى لتقابل ما يقوله المستشرقون عن القرآن الكريم، التناقض الذي يدعون أنه موجود فيه وهم في كل ما يثرونه لإظهار لإعجاز القرآن الكريم، قول الله سبحانه وتعالى في سورة المنافقون: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَتَّبِعُكَ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١].

يقول المستشرقون: إن المنافقين قد شهدوا أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأن الله يعلم أن محمداً رسوله، ويعلم أيضاً أن المنافقين كاذبون، كيف يكون المنافقون «كاذبين» وهم شهدوا بما شهد به الله، كيف تكون الشهادتان متفقتين، في أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع ذلك يكون المنافقون كاذبين، مع اتفاق ما شهدوا به مع علم الله، مع أن الكذب هو عدم مطابقة الكلام للواقع، فهل كلام المنافقين بأن محمدا رسول الله ليس مطابقا للواقع؟ هذا تناقض، هكذا يقول المستشرقون فبهم الله.

نأتى بعد ذلك إلى معنى الآية الكريمة، هم - أى: المنافقون - قالوا: ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾.

إذن... فهي قضية صادقة، فكيف يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾؟ هل التكذيب هنا يقع على ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾؟ لا، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا صدق، التكذيب هنا يقع على ﴿ نَشْهَدُ ﴾ لأنهم قالوا: ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾، فالتكذيب وارد على كلمة: ﴿ نَشْهَدُ ﴾ لأن معنى الشهادة أننا نقول بالسنتنا ما في قلوبنا، والله يعلم أن ما في قلوبهم يخالف ما يقولونه بالسنتهم إذن فقولهم: ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ ﴾، كلمة ﴿ نَشْهَدُ ﴾، هم كاذبون فيها، كاذبون في أمر الشهادة؛ لأنهم لا يشهدون، ولا يؤمنون أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما جاءوا لينافقوا بهذا الكلام، لا عن صدق، ولكن عن نفاق، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكذب فيها، ولكن التكذيب منصب على كلمة «نشهد» في ذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾.

وهنا فرق بين الشاهد والمشهود به، فرق بين تكذيب الشهادة، وبين تكذيب المشهود به المشهود به أنك رسول الله صحيح مائة في المائة، ولكن شهادة المنافقين هي المكذبة، ومن هنا ترى دقة التعبير في القرآن الكريم.

## جهل المستشرقين بمعنى: «السؤال» أوقعهم في الضلال

نأتى بعد ذلك إلى إعجاز آخر من إعجاز القرآن الكريم، إن الله يقول فى سورة الرحمن: ﴿ **فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ** ﴾ [الرحمن: ٣٩].

ويقول فى سورة الصافات: ﴿ **وَفَقَوْمٌ إِنَّمَا كُنْتُمْ تَسْأَلُونَ** ﴾ [الصافات: ٢٤].

فى الآية الأولى هناك نفى للسؤال، وفى الآية الثانية هناك إثبات للسؤال، كيف يكون ذلك، هنا يأتى المستشرقون ليقولوا هذا تناقض فى القرآن الكريم، كيف يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ** ﴾ .

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿ **وَفَقَوْمٌ إِنَّمَا كُنْتُمْ تَسْأَلُونَ** ﴾ .

هذا تناقض، محمد نسى .

نقول لهم: إنكم تقولون ذلك لأنكم جهلتم ماذا يكون السؤال، والسؤال نوعان ؛ نوع نسأله لتعلم، ونوع نسأله ليكون المسئول شاهدا على نفسه، التلميذ حين يسأل أستاذه يسأله ليتعلم، ليتعرف العلم، ولكن حين يسأل الأستاذ تلميذه، هل يسأله ليتعلم أو ليتعلم لا ، فالأستاذ يعرف أضعاف أضعاف تلميذه .

ولكنه يسأل ليكون التلميذ شهيدا على نفسه، لا يستطيع أن يجادل، أو يقول: لقد ذاكرت وهو لم يقرأ حرفا. الأسئلة فى الامتحانات مثلاً لا تقوم وزارة التعليم بوضعها لأنها تجهل ما يعرفه الطلبة، فتريد أن تستزيد منهم علما، ولكن ليكون الطالب شاهدا على نفسه فلا يستطيع أن يجادل، ورقة الإجابة موجودة وهى شاهد على درجة الطالب، إن كان ممتازا أو ضعيفا، أو لا يعرف شيئا على الإطلاق، فالآية الكريمة: ﴿ **فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ** ﴾ .

تنفى السؤال للمعرفة، والله أعلم بذنوبهم، الله سبحانه وتعالى يعلم، وبالتالي فهو غير محتاج لأن يسأل، وغير محتاج لأن يعرف منهم، لأنه أعلم منهم، ومن هنا لا سؤال لأن السائل أعلم من المسئول، فلا يكون السؤال للتعلم، ولذلك يقول الله: ﴿ **فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ** ﴾ .

أما فى الآية الثانية: ﴿ **وَفَقَوْمٌ إِنَّمَا كُنْتُمْ تَسْأَلُونَ** ﴾ ، أى إنكم ستسألون لتقرروا الحقيقة والواقع فى الحساب، لا لتقولوا شيئا لا يعلمه الله، بل لتكونوا شهداء على أنفسكم وهذا

ما تفسره الآيات التي قبلها، والتي بعدها، إذن فأين هو التعارض، وأي تناقض هنا الذي زعمه المستشرقون في القرآن، فالله سبحانه وتعالى يتحدث عن الكافرين والمكذابين، لذلك تقول السورة: ﴿وَقَالُوا بَلْآئِنَا هَذَا أَيُّومَ الَّذِينَ ﴿١٠٠﴾ فَنَادَى الْفَضْلُ الَّذِينَ كَثُرُوا بِكَذُوبِكُمْ ﴿١٠١﴾ لَعْنُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْرَجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١٠٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاقْدُوهُمْ إِلَى حَبْلِ الْخَمِيمِ ﴿١٠٣﴾ وَفَقَوْمٌ آتَيْنَاهُمْ تَسْلُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الصفات].

السؤال هنا ليس للعلم، ولكنهم مسئولون ليكونوا شهداء على أنفسهم، هذا الذي كنتم به تكذبون، هذا ما عبدتم من دون الله، والآن جاء وقت الحساب، لتكونوا شهداء على أنفسكم يوم القيامة. أين ما كنتم تعبدون من دون الله، يسألهم عما كانوا يعبدون من دون الله، ثم يقول الله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصُرُونَهُ﴾ [الصفات].

لماذا لا ينصركم أحد، لماذا لا تنصركم آلهتكم، السؤال هنا ليس للعلم، ولكن ليكونوا شهداء على أنفسهم، يحملون أوزار غيرهم.



## وزر الضلال.. ووزر الإضلال

نتنقل بعد ذلك إلى آية أخرى، يقول المستشرقون: إن الله سبحانه وتعالى قال في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وفي سورة فاطر: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وفي سورة النجم: ﴿الْأَنْزِلُ وَازِرَةٌ وِزْرَ لُكْنٍ﴾ [النجم: ٣٨].

ثم يأتي الله سبحانه وتعالى في سورة العنكبوت ويقول: ﴿رَبِّحْتُمْ أَثْقَالَكُمْ وَفَقَلْتُمْ أَنفَالَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

كيف يمكن أن يحدث ذلك، الله قضى بأنه لا تزر وازرة بأخرى ثم هنا يقول: ﴿رَبِّحْتُمْ أَثْقَالَكُمْ وَفَقَلْتُمْ أَنفَالَكُمْ﴾، أى: أوزارا مع أوزارهم. أليس هذا تناقضا، لقد نسى محمد هكذا هم يريدون أن يقولوا، ولكنهم يجهلون إعجاز القرآن في التعبير. نقول لهم: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]. معناها: أن كل إنسان يحمل ذنبه، ولكن بعض الناس يوم القيامة سيحملون ذنوبا مع ذنوبهم، من هم؟ المضطرون الذين يأتون في الحياة الدنيا ليضلوا عن سبيل الله، الوزر في الآية الأولى هو وزر الضلال، فإذا هذا ضال، وهذا ضال، وهذا ضال، كل منهم يحمل وِزْرَهُ على نفسه، فكل منهم يحمل ضلاله ووزره، فمن هنا فإنه لا يحمل ضال وِزْرَ ضالٍ آخر، ولكن هناك الضال، وهناك المضل، الضال هو من يضل الطريق يكفر بالله سبحانه وتعالى، هذا هو الضال، أما المضل فإنه لا يكتفى بأنه هو في الضلالة، لكن يضل غيره، أى: يأتي إلى رجل مؤمن، ويحاول أن يفسد إيمانه، يأتي إلى إنسان يتطلع إلى الله يحاول أن يجعله يكفر، وربما ينجح في ذلك، هؤلاء الناس «المضلون» لا يحملون أوزارهم فقط، ولكن لهم نصيب من كل وزر يرتكبه الذين أضلوهم، مصداقا للآية الكريمة في سورة النحل: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

إذن. من يضل الناس، ويعمل على نشر الكفر والإلحاد، والذين لا يكتفون أنهم هم في الضلالة وحدهم ولكنهم يريدون أن يضلوا غيرهم لهم نصيب من كل وزر يقوم به أولئك الذين أضلوهم، فانا مثلا حين أتى بإنسان لا يشرب الخمر، وأقل أغريه حتى أجعله يشرب الخمر، وأقدمها له، وأغريه بها، له وزر؛ لأنه عصى الله وشرب الخمر، ولى وزر لأننى أضلته وساعدته على المعصية، وظلمت أزينها له حتى وقع فيها ومن هنا فإن الآية الأولى التي تقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، يُقصدُ بها الضالون.

أما الآية الثانية التي تقول: ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَنْفُسَهُمْ وَأَنْفَالَ مَعَ أَنْفَالِهِمْ﴾. يُقصدُ بها المضلون الذين يُضلون عن سبيل الله، فلهم نصيب من أوزارهم، ومن أوزار أولئك الذين أضلوهم، والذين اتجهوا بهم إلى الكفر والإثم والعصيان. هذه بعض التناقضات التي يحاول المستشرقون أن ينالوا بها من القرآن الكريم، وأن يقولوا: إنه قول بشر، ولقد أوضحنا هذه التناقضات بشكل يظهر إعجاز القرآن فيها فلا تناقض في القرآن أبداً وإنما بلاغة ودقة في التعبير، تجعل اللفظ والمعنى منسجمين تماما، لا يتعدان بعضهما عن البعض، ولا يؤديان إلا المعنى المقصود نفسه بالنسبة لمقتضيات الحال، على أن المضلين أو عدداً من المستشرقين لا يكتفون بذلك، لا يكتفون بالقول بأن هناك تناقضا، بل يقولون: إن هناك تناقضا بين قوانين الكون وبين القرآن الكريم، وفي هذا افتراء كبير، وهذا هو موضوع الصفحات القادمة التي سنتحدث فيها عن «القرآن، وقوانين الكون».

